ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٧ ، السنـــــة : ٤٨

رجب ١٤٤٥هـ ، يناير – فبراير ٢٠٢٤م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- حاضر المسلمين المرير — التحرير — ٣

كلمة العدد

- أطول رحلة في تاريخ البشرية — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩
- نقر ونعترف — الدكتور أشرف شعبان أبو أحمد — ١٤

دراسات إسلامية

- المرأة الصالحة — الدكتور عبد الناصر توفيق العطار — ١٩
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ٢٤
- القرآن والنفس البشرية — الأستاذ الشيخ علي حسن العماري — ٢٩
- هنا نغرس وهناك نجني — الشيخ مصطفى الطير — ٣٢
- الإسلام ونظام الحجر الصحي — الأستاذ صلاح حسين شهاب الدين — ٣٨
- الفضيل بن عياض وهارون الرشيد — الدكتور عبد الرحمن عميرة — ٤٦

أنباء الجامعة

- عضوة اللجنة الوطنية للأقليات تزور الجامعة — أبو فائز القاسمي المباركفوري — ٥٠
- اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية الهندية تعقد دورة هامة في رحاب الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند — الأستاذ محمد عاصم القاسمي — ٥١

إشراقة

- المسؤولية المؤسساتية مغنم أم مغرم — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

حاضر المسلمين المرير

يعيش المسلمون في شتى أنحاء الأرض شرقها وغربها واقعًا مريرًا يشمت بهم الأعداء، ويجعلهم عرضة لهزء العالم وسخريته، واقعًا مأساويًّا رهيبًا بكل جوانبه وأبعاده وزواياه، وضعًا يبعث اليأس والقنوط والملل في النفوس، ويثير الخوف والهلع في القلوب من مستقبلهم ومستقبل أجيالهم، لايرون في مثل هذه الظروف بصيصًا من نور يشق هذا الليل الأليل والظلام الحالك والظلمات بعضها فوق بعض، و تتعرض معتقداتهم وقيمهم ومثلهم لأشنع وأبشع الهجمات الرامية للنيل منها، والغض من شأنها، و التشكيك في واقعيتها وعطائها؛ وفي تفكيك أوصالها. وفعلا أصبحوا في هذه المحنة وتلك في أدنى الأرض وأقصاها بين أمم العالم أجانب وغرباء، وأضيع من الأيتام في موائد اللئام، ومن التراب في مهب الريح، و من الخط على بسيط الهواء، وأهون مِمَّنْ دبَّ فوق البطحاء؛ يتجهم لهم أعداؤهم في السر والعلن، ويعبسون في وجوههم، وتنبح عليهم كلابهم، ويُغرى بهم سفهاؤهم وصغارهم، ويضحك عليهم كبارهم.

ويواجه المسلم الغيور على دينه وعقيدته دعوات تتسرب إلى شباب الإسلام وفتياته، وتستهوي القلوب، وتملأ فراغها بالإلحاد والزندقة، وتسول لهم التنمر على الدين، والانسلاخَ من عقائده و قيمه، حتى عادت فئة كبيرة من هؤلاء الذين هم من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتا قد حبب إليهم الفسوق والكفر والعصيان، فيتنكرون لأصول الدين ومبادئه السامية، ويجادلون في ثوابته، وفيما لايقبل التأويل والنقاش والحوار.

فهذا ينكر الإيمان بالله وحده و رسوله جملةً وتفصيلًا، وينقض عراه عروةً عروةً، وهو يحسب أنه يحسن صنعًا.

وذاك يزعم أنه فهم من النصوص الشرعية- من كتاب وسنة- ما لم يفهمه المخاطبون الأولون لها من الصحابة الكرام الذين شاهدوا التنزيل، وصاحبوا النبي المبعوث بها، ليل نهار، سفرا وحضرا، وجماعات ووحدانا، في خلواته وجلواته.

وآخر يعدد فوائد الربا ومنافع العقود الربوية، ويوهم أن الرقي والازدهار في البلد رهين به، و بتيسير وجوهه و وسائله، بغضِّ النظر عما جلب على العالم من الدمار والخراب، فكم ترك من البلاد بلاقع، والمجتمعات الإنسانية تئن تحت وطأة الديون المجحفة.

وآخر يحمِّل الإسلام مسؤولية تخلف المسلمين عن ركب الحياة وعن الرقي والازدهار في مختلف المجالات.

وآخر يدعو إلى الاختلاط الفاحش بين الرجل والمرأة، ويستحل الزنا والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وآخر يتهم الإسلام بالانتشار على حد السيف، وتحبيذه للعنف والكراهية.

وآخر يدعو إلى السفور والتبرج، ويعد الحجاب أكبر عائق في رقي المرأة، ومدعاة لشلل نصف المجتمع البشري.

وآخر يشكك في حرمة الحرير والذهب على الرجال.

أنواع لاتحصى ولاتعد من الفتن والمحن التي تموج كموج البحر، وكقطع الليل المظلم:

تلك المصيبة أنست ما تقدمها .... وما لها مع طول الدهر نسيان

فاللهم بك التكلان، وأنت المستعان، وإليك الملجأ والمصير. ونتعوذ بك من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شماتة الأعداء، ومن جهد البلاء. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة السادسة صباحًا من يوم الأربعاء: ٦/جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ=٢٠/ديسمبر ٢٠٢٣م)

أطول رحلة في تاريخ البشرية

يدخل شهر رجب مع طلوع هذا العدد من المجلة، وهو شهر من أشهر الحرم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

وهذه الأشهر الأربعة منها شهر رجب: فعن أبي بكرة قال: خطبنا النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوم النحر، قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه - أو بزمامه- ثم قال: «الزمان قد استدار كهيئته - وفي رواية: كهيئته- يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا؛ منها أربعة حرم؛ ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، و رجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة». قلنا: بلى. قال: «فأي بلد هذا». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلدة؟». قلنا بلى. قال: «فأي يوم هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟». قلنا بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟». قالوا: نعم. قال:«اللّهم! اشهد، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالا - وفي رواية: كفارا-؛ يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه - وفي رواية: فرب مبلغ أوعى من سامع-»، فكان كذلك، فكان محمد بن سيرين إذا ذكره يقول :صدق محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. ثم قال: ألا هل بلغت؟ (مرتين). [صحيح البخاري: ١٨٣١].

ومن أهم - بل أهم- أحداث هذا الشهر- على رأي بعض أهل العلم- هي قصة الإسراء والمعراج، التي تعتبر أطول رحلة في تاريخ البشرية؛ فإن الله تعالى أسرى بنبيه فيها من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماوات في جزء من الليل، وأراه الله تعالى من آياته الكبرى.

نص القرآن الكريم على قصة الإسراء في سورة الإسراء، فقال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ

بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]، وجاء تفسيرها وتوضيحها أكثر في سورة النجم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم:١٣-١٨]

قال ابن كثير رحمه الله: هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء».

والنظر في النصوص الشرعية يؤكد أن هذا الإسراء والمعراج كان بجسده وروحه ﷺ وفي اليقظة، لا كما ذهب إليه من ذهب أنه كان بالروح وفي المنام؛ إذ لم يكن ذلك مثار عجب وحيرة واستغراب من قريش حين خرج النبي ﷺ من صبيحة قصة الإسراء، ومر على جمع من قريش فأخبرهم بما كان له من هذه الرحلة الطويلة في جزء من الليل غير طويل.

والحق أن قصة المعراج جاءت خرقًا للعادة والسنة الإلهية. والله تعالى يفعل ما يشاء ولاغرابة فيه، ولايصح قياسها على السنن الإلهية العامة.

وتعلق المنكرون للمعراج بشبهات واهية لا تمت إلى الواقع بسبب، فمنها أن ثمة طبقة عالية في الفضاء تخلو من الهواء، حيث يستحيل حياة متنفس فيها.

يقول الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله في كشف هذه الشبهة:

«هذا لايستلزم الاستحالة وإنما يستلزم الاستبعاد، فإن التنفس للبشر ليس من لوازم البشر عقلا؛ بل عادةً. ويجوز عقلا أن يعيش الإنسان بدون التنفس. ومن المشاهد حياته بدون التنفس مدة قليلة وإن لم تطل هذه المدة. فمن الناس من يتمرن على حبس النفس، فيعيش بعضهم أيامًا وبعضهم أشهرًا مع حبس النفس وهم على قيد الحياة. فحياة الإنسان في هذه الطبقة الخالية من الهواء تجوز عقلا وإن استبعدتها العادة. وهل المعجزة إلا خرق العادة؟ فإنها إن خلت عن خرق العادة لم تكن معجزة. ولا يقول المسلمون إلا بأن المعراج للنبي ﷺ كان معجزة وخرقًا للعادة.

ثم إن التنفس إنما يستلزمه المكث الطويل، وأما المكث القليل فلايستوجب التنفس. فلو قلنا: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمكث في هذه الطبقة إلا قليلا فلا إشكال علينا بأنه كيف عاش بدون التنفس في هذه الطبقة.

والذين قالوا بثبوت معراجه ﷺ قالوا أيضًا بسرعة سيره. فلو قلنا: إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاز هذه الطبقة في دقيقة واحدة لم يبق إشكال. وحيث إن المعراج يشكل خرقًا للعادة، وأبعد من العادة، فلو ذهبنا إلى القول بخرق العادة في مقدماتها - التي لايشوبها مثل هذا البعد- فأنى يستبعد ذلك؟» (خطبات حكيم الأمة٢٥/٢١ وما بعدها).

وما أجاب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه المشركين أشبه بهذا؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخبرهم بهذه القصة صبيحة المعراج إلى السماوات، وسعوا بذلك إلى أبي بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس. قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة.

يقول التهانوي وهو يشرح هذا الجواب:

«أرأيتم إذا كان الملك يزور أحدًا من رعيته فإن طلبه الملك يومًا إليه لم يكن مثار عجب. فإن زيارة أحد الملك ليس عجبًا وبدعًا من الأمر، نعم زيارة الملك أحدًا أبعث على العجب. فكأن أبا بكر الصديق يقول: إذا كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعي العروج إلى السماوات فأصدقه، فقد سبق أن صدقته فيما هو أعجب من ذلك. فحاصل كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه مادام يقول بالبعد فيما يخبره، لم يشق عليه القول بالبعيد. كذلك نقول بمعجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيل خرق العادة، الذي يشتمل على البعد، وبناءً عليه نقول بسرعة سيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرقًا للعادة، وهو مجرد بعيد. وأي استبعاد فيه ذلك؟ و حينئذ لايحتاج إلى التنفس في الطبقة الخالية من الهواء، ولايستلزم الاحتراق بالمرور في الكرة النارية؛ فإن الاحتراق يستوجب البقاء والمكث في النار، فلو أن أحدًا مر بالنار كمر البرق لم يحترق شعره. مثال ذلك من يدخل إصبعه في لهب المصباح ثم يخرجها على الفور بسرعة فائقة فإن أنملتها لاتحترق إطلاقًا».

وهنا يطرح السؤال نفسه: لم يكن عهده ﷺ شهد الآلات والمراكب السريعة إذ لم يكن قد اخترع القطار والطائرة والسيارات؛ فأنى تيسرت له ﷺ هذه السرعة الرهيبة؟

يجيب عنه التهانوي رحمه الله فيقول:

«هذه المراكب والآلات وإن لم تكن اخترعت لأهل ذلك العصر، ولكن الله تعالى عنده آلات أسرع منها سيرًا، فقد وردت الأحاديث بأنه ﷺ جيء بالبراق، وهو دابة سريعة جدًّا، يقع حافرها حيث يقع طرفها. وعلى كلٍ لااستحالة في قصة المعراج إطلاقًا، نعم يشوبها الاستبعاد، ولانراه مضرا؛ بل تحتوي المعجزات على الاستبعاد حتمًا، وإلا لم تكن معجزة. وما أجهل علماء الطبيعة اليوم الذين لايميزون بين الاستحالة والاستبعاد، كما لايفرقون بين النظير والدليل. ومن أعجب مظاهر الجهل اليوم أن الناس يطالبون المدعي بالنظير، وليس على المدعي إلا إقامة الدليل، وإنما يوضح النظير الدعوى فقط، ولايُثبت الدعوى. ويا للأسف أصبحت الطبقة المثقفة اليوم ترى النظير دليلا».

ويزيد التهانوي رحمه الله شرحًا لهذا الموضوع فيقول:

«نقول: أي استحالة فيها – السرعة-، اللّٰهم

إلا أن فيها استبعادًا، وهو أيضًا مدفوع بأن الزمان عندكم – الفلاسفة – عبارة عن حركة فلك الأفلاك. فتعاقب الليل والنهار منوط بحركة الفلك، فلو أن الحركة توقفت، فإن الوقت الآني يستمر، إن ليلا فليل، وإن نهارا فنهار. فمن الممكن أن الله تعالى أوقف حركة الفلك لبرهة في تلك الليلة، ولا عجب فيه. فمن المشاهد والمعتاد في عالمنا هذا أيضًا أن ركب الملك إذا خرج توقف السير على الطرقات ذهابًا وإيابًا تعظيمًا وتقديرًا له. زرنا ذات مرةٍ «حيدر آباد»، فصادفنا الشرطة تحجز الناس عن السير في الطريق، فتوقف السير وساده الهدوء، قالوا: خرج ركب الأمير. فلعل الله تعالى أوقف في تلك الليلة تقديرا للرسول ﷺ حركات السماء والشمس والقمر كلها لبرهة قليلة، فتوقفت الشمس حيث كانت، وكذلك الكواكب ظلت في مكانها، فلم يتحرك شيء عن مكانه. وأي استبعاد فيه؟ فلما قضى الرسول ﷺ سيره، عاد إذن الفلك بالحركة. وبغض النظر عن المدة التي استغرقها سيره ﷺ ومعراجه فإن الناس في الدنيا يرون هذه القصة كلها قد وقعت في ليلة واحدة؛ فإن حركة الزمان كانت قد توقفت حينئذ.

وأجاب عنه بعض أهل العلم من وجه آخر وهو أن جسد النبي ﷺ ألطف من أرواحنا. فيصح التردد والذهاب والإياب في ساعة واحدةٍ. والمعنى: أنه لايخفى على أحد أن الخيال الإنساني يبعد بعدًا كافيًا كلمح بالبصر، فلو تصورت العرش لانتقل خيالك إليه في أقل من دقيقة واحدة. فحركة الخيال سريعة جدًّا، وذلك لأن الخيال قوة من قوى الروح، والروح أمر ألطف، وليس كثيفًا مثل الماديات، فلا حاجز في سيرها. وما دام جسد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألطف من أرواحنا فأي عجب في تحوله من الأرض إلى السماء، ومنها إلى الأرض في لحظة واحدة».

وهنا يطرح السؤال نفسه: ما أهداف المعراج؟ فالجواب عنه أن القرآن الكريم صرح بأن الهدف منه هو إراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيات الله تعالى، قال تعالى في سورة الإسراء: (لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ)، و قال سبحانه في سورة النجم: (لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) قال ابن عطية في تفسير هذه الآية: «قال جماعة من أهل التأويل معناه: رأى الكبرى من آيات ربه، والمعنى (مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ) التي يمكن أن يراها البشر، فـ(ٱلْكُبْرَى) على هذا مفعول بـ (رَأى). وقال آخرون: المعنى: لَقَدْ رَأى بعضًا مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى، فـ(ٱلْكُبْرَى) على هذا وصف للآيات، والجمع مما لا يعقل في المؤنث يوصف أبدًا على حد وصف الواحدة. وقال ابن عباس وابن مسعود: رأى رفرفًا أخضر من الجنة قد سد الأفق. وقال ابن زيد: رأى جبريل في صورته التي هو بها في السماوات».

قال التهانوي رحمه الله:

«وإراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآيات لها فائدتان:

الأولى: ليـزداد معرفـة، والثانيـة: ليخـبر النـاس بعد أن يراها.

فالحاصل أن المعراج له غرضان: الأول: رؤية الآيـات، وزيادتـــه وكمـاله علـما. والثـاني: تكميـل غـيره بهـذه العلـوم، فالفائـدة الأولى لازمـة قـاصرة، والثانيـــة متعديـــة. وغـير خـافٍ أن الوقـت الـذي يتجلى فيه الفائدة المتعدية أفضل من الوقت الذي يتجلى فيه الفائـــدة اللازمـــة؛ فإن الغرض الأصلي من بعثة الرسول هو إفادة الخلائق، ثم إن تكميل الآخـرين ممـا يرفـع النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أيـضًا درجات».

ويقـول العلامـة شبير أحمـد العثماني في تفسيره وهو يشرح المعراج النبوي:

«قالوا: كيف يمكن قطع هذه المسافة الطويلة في الأرض والسماء أو كيف تأتى للنبي ﷺ المرور بكـرة النـار والزمهريـر، أو كـما يقـول الأوربيـون: لاوجود للسماوات أصلا، فكيف يسلَّم صعودُه من سـماء إلى أخـرى كـما تـنص عليـه الأحاديـث؟ولكن عجزوا عـن إتيان دليل واحد على أن السماء لاشيء في الواقع، ولـو سلمنا على سبيل الفـرض والتقـدير ادعـاءهم بـأن هـذا الأزرق الـذي نـراه لـيس سـماء في الواقـع، فـما الـذي يمنعنـا عـن القـول بـأن فـوق هـذا الأزرق سماء؟ وأما قطع هذه المسافة الطويلة في ليلة واحدة، فالحكماء كلهم يعترفون بأن السرعة لا حد لهـا. ولم يكـن يـؤمن أحـد قبـل اليـوم بمئـة سـنة بـأن الإنسان سيخترع مركبة تقطع مسافة ثلاث مئة ميل في ساعة واحدة، أو يمكننا أن نرتفع بالطائرة عشرة آلاف قـدم في السماء، ومـن ذا الـذي شـاهد كرامـات هـذا البخـار وهـذه القـوة الكهربائيـة؟ وأمـا كـرة النـار فقد أصبحت اليوم لفظا لا معنى له، اللّٰهم إلا أنهـم ركبـوا في الطـائرات آلات تقـاوم الـبرد الـشديد ، وتحافظ على الطيارين إذا ارتفعت في السماء. هذا ما عليه آلـة اخترعها الخلقُ. فإذا شاهدنا ما خلقه الله تعالى مباشرةً من الآلات فإن العقل يؤخذ بالدهشة والحـيرة الـشديدة. فهـذه الأرض أو الـشمس كـم مسافة تقطعها خلال أربع وعشرين ساعة؟ وما مـدى المسافة التي تـصل إليهـا أشـعة النـور؟ وهـذا الـبرق في الـسحابة يلمـع في مكـان ويقـع في مكـان آخر. ولـو اعترض هذا السير والرحلة الجبال لم يقم لها وزن.

أليس الله الـذي خلق هـذه الأشياء قادرًا عـلى أن يهيـئ لحبيبـه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في مركبتـه - وهـي البراق - آلات وأجزاء تعين على الحفظ والصيانة، مما يمكِّن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من التحول من مكان إلى آخر كلمح بالبصر وفي منتهى التكريم والراحة؟ ولعلـه مـن أجـل ذلـك بـدأ قـصة الإسراء بـ (سبحان الـذي)، كـي يأخـذ النـدم والحيـاء الـذين يريـدون أن يحصروا لقصر نظرهم وضيق تصورهم - قـوةَ الله تعـالى اللامتـناهية في جـدران أوهـامهم وتخمينهم- على ما فعلوا».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾

أي علاوة على الله تعالى شاهد بصدقي، وأن القرآن الكريم ينطق ويشهد به شهادة لايسع ردها، يستيقن أهل الكتاب- الذين ترجعون إليهم في أمر زعما منكم أنهم يعلمون الكتب السماوية - تستيقن نفوسكم بأني نبي آخر الزمان، الذي بشر به الأنبياء السابقون. وكانوا يترددون في معرفة النبي ﷺ وصدق القرآن الكريم، كما لايشكون في أبنائهم، غير أن الحسد والكبر وتقليد الآباء، وحب الجاه والمال مما لايسمح لهم بأن يؤمنوا، وينقذوا أنفسهم من الخسارة الدائمة والهلاك الأبدي.

وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

أي ليس في الواقع نبيًّا، ولكن ادعى النبوة افتراءً على الله تعالى، أو يصر على تكذيب النبي الصادق الذي توفرت الأدلة الواضحة على صدقه، ويسمع رسالة الله تعالى ثم يكذب بها. فما أحد أظلم منهما. ومن سنة الله تعالى أن الظالم لايلقى الفوز والخير في عاقبة أمره. فلو سلمت – فرضًا- أني مفترٍ على الله تعالى، لم يكتب لي النجاح أبدًا، وأنتم مكذبون - كما دلت عليه الدلائل- فلاخير لكم. فانظروا في الأحوال، وفي مصيركم، واقلقوا على العاقبة، واتقوا يومًا يأتي ذكره لاحقًا، وهذا ما حمل عليه ابن كثير الآية. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بـ(افتراء على الله) ماكان عليه المشركون من الشرك، كما يشير إليه قوله لاحقا: (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ)[القصص:٧٥].

وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٢٢﴾

أي أين صار الذين كنتم تدعون أنهم شركاء في الألوهية، وأنهم يشفعون ويعينونكم عند الشدائد، هلا ينفعونكم؟

ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

أي لايملكون إلا الرفض والإنكار للوقائع، ولايبقى من حقيقة الآلهة الباطلة - التي كانوا يفتنون بالاعتقاد فيهم وحبهم- إلا أن يتبرؤوا من العقيدة والعلاقة المستمرة طوال العمر.

ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

أي يتجلى بهذا الكذب الصريح ما فيه المشركون من الهلع المفرط، وما فيه شركاؤهم من منتهى العجز والبؤس. لو أن المشركين يدركون هذا المصير المخزي في الدنيا.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

هذا ذكر الذين كانوا يستمعون إلى القرآن الكريم وأحاديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يريدون الطعن والاعتراض، ولم يقصدوا الانتفاع بالهدى، فأدى إعراضهم الممتد عن النصح والهدى، و التعطيل المستمر إلى شلل وسائل وقوى قبول الحق، وحرمت قلوبهم فهم الحق، وثقل على أسماعهم سماع رسالة الهدى، وأخوت عيونهم من النظر بعبرة، فلم يوفقوا للإيمان رغم ما رأوا من أنواع الآيات. وأشد من ذلك أنهم قانعون فرحون بحال الموت هذه؛ بل يعلنونها بفخر واعتزاز.

قال تعالى في سورة حم السجدة: (فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُوْنَ ﴿٤﴾ وَقَالُوْا قُلُوْبُنَا فِيْٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُوْنَآ إِلَيْهِ وَفِيْٓ اٰذَانِنَا وَقْرٌ وَّمِنْۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عٰمِلُوْنَ﴿٥﴾) [فصلت:٤-٥]. دلت هذه الآية على أن هذا الإعراض هو السبب وراء حدوث هذه الحالة. قال تعالى: (وَإِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِ اٰيٰتُنَا وَلّٰى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيْٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا) [لقمان:٧]. ولايملك أحد ترتيب المسببات على الأسباب غير الله تعالى، فنسب جعل الغشاوة وأمثاله إلى الله تعالى في الآية الكريمة.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

أي لم يبق فيهم فهمٌ ولا إنصاف فضلًا عن الإيمان والانتفاع بالهدى الرباني، وإنما قصدوا بالدخول على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المجادلة والتهكم. فيسمون الحقائق والتصريحات القرآنية -العياذ بالله- بأساطير الأولين. ثم لم يكتفوا بهذا التكذيب والجدل والسخرية؛ بل حاولوا أن يتعدى مرضهم هذا إلى غيرهم. فيصرفون الناس عن الحق، ويعرضون عنه، ليراهم الناس فينفروا عن الحق، ورغم هذه المحاولات كلها لن يتضرر الحق شيئا- ولله الحمد-؛ بل لابد أن يغلب ويظهر. ولايتضرر به الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن الله تعالى قد تكفل

عـصمته وإعـلاء أمـره. وإنـما يهيـئ هـؤلاء الحمقـى أسـباب هلاكهـم وضـياعهم، ولايـشعرون أنهـم يحفرون حتفهم بظلفهم.

وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٧﴾

أي إن تكذيب آيات الله والاستهزاء بهاونحو ذلـك إنـما يـستمـر إلى أن يـروا العـذاب الإلهـي المفظع، وحين يمسهم شيء من ريح النار، ذهب عنهم ما كانوا يتبجحون به، ويتمنون ألف مرة أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى، فلايكذبوا بربهم أبدا، ويخلصوا في الإيمان، والآن قد ندموا وما ينفع الندم.

بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾

أي ليس تمنيهم -حينئذ- بالعودة إلى الدنيا نابعًا عن العزم الصحيح والرغبة في الإيمان؛ بل لأنهم رأوا المجازاة والمكافأة على أعمالهم بأم أعينهم، مما كانوا يتكتمون عليه بستار من إنكار الأدلة، وقد رأوا العذاب الإلهي بعيونهم، وانكشف الستار عما كانوا يتسترون به من الأعمال الشنيعة. وقد افتضح كذبهم الذي كذبوه قبل قليل بقولهم: (وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ) [الأنعام:٢٣]. والحاصل أن تأثيرات الشر، التي كانت تتربى في بواطن هؤلاء الخُرقِ بصورة خافية وغير مرئية قد تمثلت لهم عذابًا أليمًا، فتمنوا العودة إلى الدنيا مرة أخرى وقاية لأنفسهم.

فائدة: أي أنهم يكذبون الآن كذلك بأنهم يخلصون في الإيمان بعد أن يعودوا إلى الدنيا، ولن يكذبوا بآيات الله تعالى. فإن هؤلاء الأشقياء لو ردوا إلى الدنيا، لأعملوا ما أودعوه من قوى السوء والشر، ونسوا المصيبة وتمنوا العودة إلى الدنيا ذعرًا منها، كأنها خيال ومنام. كما نرى الناس يقبلون إلى التوبة والإنابة حين يتعرضون للمصائب والمهالك في الدنيا، ثم لم يلبثوا أن نسوا ما عاهدوا عليه من قبل. كما قال تعالى: (كَاَنْ لَّمْ يَدْعُنَآ اِلٰى ضُرٍّ مَّسَّه) [يونس:١٢].

وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

أي تمتعوا ما شئتم، ولاتنغصوا راحة الدنيا بالتفكير في الآخرة، وهذا ما عليه الماديون في أوربا.

وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾

أي حين تتجلى الحقيقة لعيونهم، ولايجدون محيصا عن الاعتراف بالبعث بعد الموت ونحوه، يقال لهم: ذوقوا مغبة إنكار الحقيقة والكفر بالمعاد.

قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

من أشد شقاوة المرء أن ينكر لقاء الله تعالى، ويعد هذا الهدف الأسمى من الحياة كذبًا وزورًا. فلما تمثل له الموت أو القيامة بدأ يقلب كفيه من غير جدوى، ويقول: يا ويلتى، ما أعظم تقصيري في الحياة الدنيا أو في الاستعداد ليوم القيامة، ولات حين مندم. وحين ينوء بظهره أثقال الذنوب والشرور كان الأسف في غير حينه، ولن يخفف الأسف من وزره.

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

كان الكفار يقولون: لاحياة إلا الحياة الدنيا، والحق أن هذه الحياة الدنيا الفانية المنغَّصة لاتعدل جناح بعوض بجنب الحياة الآخرة، وإنما تعد من لحظات هذه الحياة حياة ما أنفقه المرء في إصلاح آخرته. وما قضاه بعيدًا عن التفكير في الآخرة لايعدو لهوًا ولعبًا عند الخائف من العاقبة. فإن المتقين والعقلاء يدركون أن دارهم الأصلية هذه الدار الآخرة، وأن حياتهم الحقيقية هي الحياة الآخرة.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

أُودِعَ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشفقة والمواساة أكثر من العالم كله، فكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحزن ويقلق كثيرًا على تكذيب هؤلاء الأشقياء وإعراضهم، وخسارة مستقبلهم، وعلى أقوالهم الكفرية، فنزلت هذه الآيات تسليةً له ﷺ، وتهديدًا لهم، وأُمِرَ ألا يحزن على إعراضهم وتكذيبهم هذا الحزن البالغ، فإن هؤلاء الذين يكذبون لايكذبونك في الواقع؛ فإنهم يعدونك صادقا أمينًا من ذي قبل، وإنما يكذبون بآيات الله التي أنزلت تصديقًا للرسول ولتبليغها، عن عمد وقصد ظلمًا وعلوًّا، فأسنِد أمر هؤلاء الظالمين إلى الله تعالى واطمئِنَّ بالا، فإنه كفى مجازاتهم على ظلمهم وعلى صبرك عليهم. فإن الأنبياء السابقين الذين تلونا عليك أحوالهم، قد كذبهم أممهم، وآذوهم، وقد صبر عليهم أولو العزم من أنبياء الله المعصومين، حتى جاءهم نصر الله تعالى كما وعدهم، وانتصروا على الظلمة الطغاة المتكبرين. فما وعدك الله تعالى من النصر والظفر، لابد أن يتحقق عن آخره. قد تزول الجبال عن مكانها، أما وعد الله تعالى فلايزول. ومن ذا يبدل كلام الله تعالى؟، أي شيء يحول دون وقوع ما قاله سبحانه. وليتذكرْ

المكـذبون أن حـربهم في الواقـع ليـست عـلى محمـد ﷺ؛ بل على رب محمد ﷺ، الـذي أرسله أعظم رسول، وأكبر محل ثقة مع الآيات البينات. فتكذيب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكذيب بتلك الآيات الإلهية.

وَإِن كَانَ كَـبُرَ عَلَيْـكَ إِعْرَاضُـهُمْ فَـإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْـتَغِىَ نَفَقًـا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُـلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَـآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُـمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

كـان الكفـار يطـالبون بأنـه إذا كـان نبيًّـا فهـلا يكون معه دليل وآية دائمة يراها كل شخص بعينه، ويـؤمن ويـضطر إلى الإيـمان بـه. وكـان النبـي ﷺ يحرص على إيمان العالم كله، فربما حدثته نفسه أن يحقـق طلـبهم هـذا. فعلَّمـه الله تعـالى ضرورة اتبـاع المشيئة الإلهية في الأمور التكوينية.

ولاتقتضي المـصالح التكوينيـة أن يُضطَر العـالم كلـه إلى الإيـمان، فـإن الله تعـالى قـادر عـلى أن يهـدي الناس إلى الطريق المستقيم من غير وساطة الأنبياء والآيات، وحيث إن حكمة الله تعالى لاتقتضي إراءة أمثال هذه الآيات المقترحة المعجزة فمن ذا يقدر – على خلاف مشيئة الله تعالى- أن يجعل في الأرض أو السماء نفقًا أو سلمًا، ويأتيهم بمعجزاتهم المقترحة؟ ومن السفه أن يُرجى وقوع أمر على خلاف حكمة الله تعالى وتدبيره.

إِنَّمَـا يَـسْتَجِيبُ ٱلَّذِيـنَ يَـسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَـوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

لاترجُ من الناس جميعًا أنهم يؤمنون، إن الذين قـد صـمت آذانهـم فلايسمعون، أنـى يؤمنـون؟ وإن هـؤلاء الكفـرة الـذين أصـبحوا كـالأموات قلبًـا وروحًـا، يـرون القيامـة فيـستيقنون، ويؤمنـون بـما يكفرون به.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْـثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

أي هلا نزلت آية من الآيات التي اقترحوها، كما في قوله تعالى: (وَقَالُوْا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْاَرْضِ يَنْۢبُوْعًا ۙ اَوْ تَكُوْنَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيْلٍ وَّعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْاَنْهٰرَ خِلٰلَهَا تَفْجِيْرًا ۙ اَوْ تُسْقِطَ السَّمَاۗءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا اَوْ تَاْتِيَ بِاللّٰهِ وَالْمَلٰۗىِٕكَةِ قَبِيْلًا ۙ اَوْ يَكُوْنَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ اَوْ تَرْقٰى فِي السَّمَاۗءِ ۭ وَلَنْ نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتٰبًا نَّقْرَؤُهٗ ۭ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ اِلَّا بَشَرًا رَّسُوْلًا) [الإسراء:٩٠-٩٣]، وإلا فإنـه ينـزل عليـك تباعًـا مالايحـصى مـن المعجـزات والآيات العلمية والعملية مثل المطر من السماء.

فائدة: أي لايعجز الله تعالى شيء عن الإتيان بالمعجزات المقترحة، ولكن معظمكم يعجزون عن فهـم قـوانين الحكمـة والرحمـة التي يقـوم عليهـا نظـام التكـوين. وهـذه القـوانين تقتضي أن لايـؤتى بجميع المعجزات المقترحة.

نقـر ونعـــترف

بقلم: **الدكتور/ أشرف شعبان أبو أحمد**

كلما مر بي العمر ينتابني شعور بدنو الأجل وباقتراب ملك الموت مني أكثر وأكثر، ويخيل لي كما لو كان يشير لي بأن دوري هو التالي. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١) وقال: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (السجدة:١١) وقد مر بنا العرف على أن من تقدم به العمر وبلغ منه أرذله، لن ولم يعش بقدر ما عاش، وأن هذه المرحلة العمرية من دلائل قرب انقضائه. مع يقيني التام بأن لا أحد قط، يعلم متى وأين سينتهي أجله وينقضي عمره، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ (لقمان:٣٤) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١٤٥). وسيكون في الوقت المحدد له سابقا من المولى عز وجل. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ (المنافقون:١١) فكل نفس ذائقة الموت، كما قال جل علاه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران:١٨٥) قد يكون بعد ثوانٍ أو دقائق أو ساعات أقل من ذلك أو أكثر لا يعلم توقيتها إلا الله. وقد يمتد بنا العمر إلى ما شاء الله، على غير ما نتوقع ونظن، قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ (الحج:٥) وقال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ (غافر:٦٧) وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ (فاطر:١١) وكلما امتد بي العمر، يلح على نفسي سؤال: ماذا أعددت لدارها الأخرى، وينتابني شعور بالخوف من تلقي الإجابة، وعلى أي حال سيكون خروج روحي، وهل ستهون علي سكرات الموت، وعند مواراتي التراب كيف ستكون ضمة القبر وضغطته، هل سيضيق قبري أم سيفسح وينيره الله لي، هل سيكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، هل مقامي فيه مقام نعيم وسرور أم عذاب وشقاء، وماذا عن حسابي في الآخرة أيكون يسيرا أم عسيرا؟ وأتخيل مصيرها في كلتا الحالتين، وتتباين مشاعري بين الغبطة والحزن وبين السرور

والأسى، أأبكي لقرب حلول أجلي، ومفارقتي الدنيا بكل ما فيها، وخوفا من مصير لا يعلمه إلا الله، أم أبتسم رجاء فيما عند الله، وطمعا في رحمته، ومستبشرا بأن يبدلني الله دارا خيرا من داري، وأهلا خيرا من أهلي، وشوقًا للقاء الأحبة كما كان يقول بلال بن رباح رضي الله عنه، ولا أشعر إلا بقشعريرة في جسدي وارتجاف فرائصي، فأفوض أمري لله. وكلما مرت أمامي دقيقة من عمري دون أن أجعل منها رصيدا للآخرة يلازمني إحساس بالغم والهم، وأتمنى لو أن كل ما مضى من عمري تجمع أمامي مرة ثانية لتحويله لحسنات.

كنت أظن أن ما عليه من شباب وصحة وقوة، سيستمر بي على ما هو كائن؛ لكن خاب ظني بمرور السنين، فلم يدم أي منها على حاله، وما من نعمة أنعم الله بها علي إلا وجاء الوقت وذهبت عني أو ذهبت عنها برضاي أو بغيره، نعمة الصحة والمال والولد والوظيفة والمركز، كله زال ولم يبق لي إلا الذكريات، بحلوها ومرها بطيبها وخبيثها بجيدها ورديئها، فإن كانت خيرا حمدت الله عليها كثيرا، وإن كانت شرا فأسارع إلى التوبة والاستغفار والدعاء. كل شيء هلك وفني، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (الرحمن:٢٦) فيا ليتني اغتنمت شبابي قبل هرمي وصحتي قبل سقمي، قال تعالى في سورة الزمر (آية:٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ يا حسرتي على ما ضيعت من العمل بما أمر الله به، ويا حسرتي على ما قصرت في طاعته وحقه، يا ليتني كنت أنصعت لمن نصحني وقتذاك بالبعد عما أنا فيه، ويا ليته لم يكتف بنصحي، ومنعني بكل قوة، نعم كنت سأتصدى له وتدور بيننا مشاجرات، تنتهي بأذية أي منا، ولكن أذية بدني بالأمس أهون علي بكثير مما ينتظرني غدا، ومما أعيشه الآن من تأنيب ضمير وأسف على ما فات، وما أصابني من فرط اتباع الشهوات، كنت أتلذذ بالمتع ولم أكن أشعر بأي نفور عنها، ولا أفيق منها إلا على عواقبها ومآلاتها. وكلما صادفتني لحظة تفكر فيما أقوم به، راودني التسويف والمماطلة والتأخير، والاعتماد على رحمة الله ومغفرته، ليدفعني في نفس الطريق، لأبقى على ما عليه، وأنغمس فيها حتى أذناي. فلم يبق لي الآن إلا الندم على ما مضى، والعزم الصادق ألا أعود إليه، ومتابعة ما أستقبله من عمري، بالإيمان الصادق والعمل الصالح، رغبة في عفو الله، وطلبا لمغفرته، ورجاء لرحمته، وليبدل الله سيئاتي إلى حسنات، فضلا منه وإحسانا، ولله الحمد والشكر، وإن ضعفت قوتي، فعزيمتي لم تفتر

بعد، وما ضعف بدن عما قويت عليه النية، قال تعالى في سورة طه (٨٣) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ (الفرقان:٧٠) وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن:١٦).

ولذا أقر وأعترف بأني أذنبت وارتكبت من المعاصي ما لا يمحوه إلا عفوك يا عفو، ومن الآثام ما لا يزيحه إلا غفرانك يا غفور، ومن السيئات ما لا يزيله إلا رحمتك يا رحيم، ربي لم أعبدك حق عبادتك، ولا أحد يقدر أن يعبدك يا الله حق عبادتك، ويعرفك حق معرفتك، ويتقيك حق تقواك، ويعظمك حق عظمتك، ولو عبدتك يا الله بكل ما أستطيع ما أدى ذلك من حقك. ربي لم أؤد ما يجب علي، وحدت عن سبيلك إلى غيره من السبل، وما من طريق سلكه الشيطان، إلا وسلكته حبوا أو مشيا أو ركضا، واتبعت سبل شياطين الإنس شبرا بشبر وذراعا بذراع، رغم أن كيد الشيطان كان ضعيفا، إلا أن ضعف نفسي أمام المغريات، قد أعطى لضعف الشيطان قوة وتسلطا علي، ذلك أن قوة العدو في أحيان كثيرة لا تستند إلى قوة ذاتية لديه، بقدر ما تستند إلى ضعف الخصم وتراخيه واستسلامه، والمعصية قد تكون زلة عارضة، نتيجة لضعف في الإرادة ينتهي بعد حين، أو تكون غائرة في النفس متمكنة منها ساكنة في أعماقها، ويبدأ الشيطان غوايته، بخطره على البال، ثم فكرة، ثم همة وعزم، ثم فعل، ثم يتحول الفعل إلى عادة وسلوك، وأصعب الحرام أوله ثم يستسهل ويستساغ ويحلو، ثم يبحث عنه أو عن حرام مشابه له، فإذا أراد الفرد منا أن ينجو من حبائل الشيطان فلا يستسلم لخطواته، وليحذر أول خطوة، فالتنازل الأول يجر للتنازل الأخير في كثير من الأحوال.

لقد غرتني الدنيا واستعبدتني الشهوات فأطلقت لها العنان، واستهوتني نزواتي، فاستبحت المنكرات والرذائل، امتدت يدي لما لا يحل لي، بطشت وضربت بغير حق، وكتبت ما لا يجوز كتابته، مروجة لباطل ومشيعة لفاحشة وناشرة لفساد، وتوسعت في الكسب من ربا ورشوة وسرقة وغش واختلاس، وبصري طاف بكل عورة تتبعها وتفحصها وتمحصها ثقل غطاؤها أم خف، ولساني خاض في كل عرض، وقذف وسب وأهان واغتاب، ونم ما لا يعد ولا يحصى، وأذني استمعت إلى ما حرم استماعه، رجلي سارعت لكل متعة، فاستحسنت الاختلاط بالجنس الآخر في النوادي والحفلات

الماجنة والشؤاطئ والرحلات، وما يتبع ذلك من تلامس وتلاصق وأحضان وقبلات إلى ما يصل بنا الأمر، وبطني اشتهى كل ما لذ وطاب، من مأكل ومشرب فاستطعمت المسكرات والمخدرات وغيرهما من محرمات الأطعمة، أكلت وتمتعت كما تأكل الأنعام، استقويت على الضعيف، وتنمرت على كل ما كان تحت يدي، تعاليت وتكبرت عليهم، وحسدت كل ذي نعمة ليس في حوزتي منها، وللأسف في كل أمر كنت أجد من يعاونني ويساعدني؛ وبل ويشجعني على المضي فيه. لا أدري كم أضاعت من متع حلال باستعجالي لمتع الحرام، وكم أكلة حرام منعت عني أكلات حلال، وكم من لذة خبيثة فوتت لذات طيبات، وكم من فضيلة أضاعتها المعصية، ولو تذوقت الحلال لاستشعرت بحلاوته التي تفوق كل لذات الحرام، ولكن ظلمت نفسي باستجابتي لأهوائها وشهواتها فكنت سببا في هلاكها، قال تعالى في سورة الطلاق (آية:١) ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾.

ومالي لا أعترف بذنوبي وقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة:١٠٢) كما قال تعالى في شأن أبوينا آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣) وحكي عن سيدنا موسى قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص:١٦) وعن سيدنا يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧) وأصبح هذا الدعاء وهذا الاعتراف من خير الأدعية التي تنجي العبد من كربه. قال عليه الصلاة والسلام «دعوة ذي النون وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب الله له». وعن ملكة سبأ أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (النمل:٤٤) فلا بأس من أن نعترف بذنوبنا في خلوتنا مع الله ومنجاتنا له، فمن ستره الله في الدنيا فلا يفضح نفسه على رؤوس الأشهاد، كما يجوز الاعتراف في حالة مصلحة تعود على المعترف أو على الناس، نقر جميعا ونعترف، ولا نكابر ولا نبرر لأنفسنا ما ارتكبناه، ولا نقنع أنفسنا باضطرارنا لفعله، ولا نسوق الحجج والبراهين لذلك، وكفى بالله شهيدا علينا، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض والسماء،

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم ما أخفينا وما أعلنا، وهو أعلم بنا منا، فلن ينفعنا الندم بعد الممات، قال تعالى في شأن الذين لم يعترفوا بتقصيرهم إلا بعد أن ذاقوا عذاب النار ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:١١) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه». نعترف اعترافا نرجو الله تعالى أن يسقط به السيئات وتتهاوى أمامه الذنوب، اعترافا ينشرح معه الصدر، ونتخلص به من تأنيب الضمير، ونفتش في زوايا النفس لنمسح غبار السنين، ونشمر به عن ذراعينا ونتحفز لننطلق بعد غياب طال زمنه، فنطرق كل باب من أبواب الخير، بلا تقاعس ولا تهاون وبكل تأهب وتصميم على تعويض ما فات والله المستعان. فالاعتراف بالذنب، إذا اقترن بالندم، والإقلاع والعزم على عدم العودة، فإنه يعتبر من علامة الفوز وتشبث بطوق النجاة، قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ (غافر:١١).

يا رب رجعت إليك تائبا، رجعت إليك نادما، رجعت إليك مستغفرا، يا رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، واسترني بسترك الجميل، ولا تفضحني بين خلقك، ولا تخزني يوم يبعثون، وأعتق رقبتي من النار، وأدخلني الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب، مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا، اللّٰهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، اللّٰهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللّٰهم إني أستغفرك من كل ذنب يعقب الحسرة، ويورث الندامة، ويحبس الرزق ويرد الدعاء، ويمحق الحسنات، ويضاعف السيئات، ويحل النقمات ويغضبك. اللّٰهم فيما بقي لي من عمر، اهد قلبي وكف أذني وعيني ولساني وسائر جوارحي عن فعل ما يغضبك، وسخرها لطاعتك وطاعة رسولك ولكل عمل يقربني من الجنة ويبعدني عن النار. وأجب دعائي، إنك على كل شيء قدير، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣). وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

المـــرأة الصالحـــة

بقلم: الدكتور/ عبد الناصر توفيق العطار

المـرأة الـصالحة هـي المـرأة المؤمنـة بربهـا، المخلصة لدينها، الراعية لوطنها وأسرتها، الساعية إلى أداء رسالتها شاكرة لله تعالى صابرة.. هي المرأة التي تجد طاعة الله تهديها، وثوب التقى والحياء يسترها، وطهارة القلب ونقاء السريرة يزينها، والإخلاص لزوجهاوسائر أسرتها ووطنها والعمل من أجلهم يشغل وقتها ... هي المرأة التي تعرف حقوقها، وتعرف مع حقوقها واجباتها.

إذا التمسنا مثالا للمرأة الصالحة وجدنا كتاب الله يحدثنا عن نماذج كثيرة للنساء الصالحات فها هي ذي سارة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام يبتليها الله عز وجل بعدم الإنجاب حتى أصبحت عجوزا فتصبر؛ بل نجدها تهب زوجها جاريتها «هاجر» ليتزوجها عسى أن ينجب منها، تقديرا منها لزوجها، ورعاية له ومودة وفضلا، فيبارك الله صنيعها، ويرزق إبراهيم ابنه إسماعيل من هاجر ثم يرسل الله الملائكة إلى بيت سارة تبشر إبراهيم بأنه سينجب منها، ويأخذ سارة الطمأنينة... وتتجه إلى ربها، ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾... وها هي ذي آسيا امرأة فرعون، كان لزوجها ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته فلا ترى في ذلك سعادتها ولا تحس الطمأنينة مع زوجها الذي طغى فقال أنا ربكم الأعلى... وتتجه إلى ربها خاشعة ضارعة تدعوه خوفا وطمعا وتطلب منه ما هو خير من فرعون وملك فرعون ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ وها هي ذي مريم ابنة عمران في محرابها راكعة ساجدة خاشعة لله عز وجل ... ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ... واختارها الله صديقة طاهرة وأنبتها نباتا حسنا، وقضى عليها دون غيرها من نساء العالمين أن تلد عيسى عليه السلام بغير أب، آية من ربك للعالمين ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

ما أحوجنا إلى المرأة الصالحة.. ها هن أخواتكن – يا نساء هذا العصر – أسر عن إلى

رســول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يبايعنــه عــلى كــل مــا يُكسبهن صفة الصلاح، فسجل الله عز وجل لهن هذا الصنيع في قرآنه المجيد حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ نعم أيها النبي – صلوات الله عليك وسلامه – إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا وعلى أن الله سبحانه هو الواحد القهار النافع الضار الرزاق القوي المتين، فبايعهن واستغفر لهن الله ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ... وبايعهن أيضًا على ألا يسرقن شيئا من أزواجهن أو غير أزواجهن، ولينتفعن بما كتب الله لهن من رزق ... وبايعهن كذلك على ألا يقتلن أولادهن فلا يسقطن الأجنة من بطونهن قبل الولادة ولا يسعين لوأد البنات بعد الولادة، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ فلا تلهج ألسنتهن بنميمة، ولا يزنين ولا يأخذن لقيطا يلحقنه بأزواجهن، ولا تخلو امرأة بغير ذي محرم لها، ولا ينُحن أو يمزقن ثيابهن عند موت عزيز... إلى آخر ما قد تعتاده النسوة من الآثام والمعاصي... ولقد بايعهن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على ذلك، بايعهن على إيمان صحيح وعقيدة سليمة، بايعهن على سمو روح وعلو همة وشرف نفس وحفاظ على مكارم الأخلاق فأبشر بها من بيعة.

من المسلمات الأوليات صالحات حملن راية الإيمان وقُدن موكب النور وضربن أروع الأمثال في رعاية حقوق الله والأسرة والوطن... وها هي ذي خديجة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام تهرع إليه عندما جاءها يرتجف صوته مما رآه من الوحي لأول مرة في غار حراء فتضمه إلى صدرها في ثقة وحنان دافق وتقول: «الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، واطمأنت نفس المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وآمنت خديجة بالحق الذي جاءه ووقفت طوال حياتها إلى جانبه دائما تؤيده وتشد أزره وتفي بحقه، وظل الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر وفاءها طيلة حياته «آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس...

وها هي ذي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وقد بلغت مئة عام يدخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير يقول: «يا أماه خذلني الناس حتى أهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت، فماذا ترين؟» فتأبى نفسها العظيمة أن يتراجع ولدها عن سبيل الله حتى النصر أوالشهادة فتقول: «الله ... الله يا بني إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه

فـامض عليـه، وإن كنـت أردت الـدنيا فبـئس العبـد أنت، أهلكت نفسك ومن معك. وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت بنيتي فليس هذا فعـل الأحـرار ولا مـن فيـه خـير... كـم خلـودك في الـدنيا؟ القتل أحسن... والله لضربة السيف في عز أحب إلي من ضربة السوط في ذل».

فقـال: يـا أمـاه أخـاف إن قتلني أهـل الـشام أن يمثلـوا بي ويـصلبوني، فقالـت لتقطـع عليـه خـط الرجعـة: «يـا بنـي إن الـشاة لا يـضرها الـسلخ بعـد الذبح، فامض على بصيرتك واستعن بالله» فأسرع عبـد الله يقبـل رأسـها ويقـول: هـذا والله رأيـي، ولكنني أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدني قوة... وخرج فقاتل حتى قتل فاحتسبته عند الله وكانت من الصابرين...

وهـا هـي ذي زينـب بنـت محمـد ﷺ تؤمن بالله عز وجل ولـما يـزل زوجها «أبو العـاص بـن الربيـع» كـافرا فتـدعوه إلى الإسـلام، ولكنـه يـرد عليهـا قـائلا: «والله مـا أبـوك عنـدي بمتهم، ولـيس أحـب إلي مـن أن أسـلك معـك يـا حبيبـة في شـعب واحـد، لكنـي أكـره لـك أن يقـال: إن زوجـك خـذل قومـه وكفـر بآبائـه إرضـاء لامرأتـه، فهـلا قـدرت وعذرت! وتندى عيناها بالدموع ولكنها تصبر.... ثـم لا تلبـث أمهـا خديجـة رضي الله عنهـا أن تمـوت، ويرحـل أبوهـا النبـي الكـريم إلى يثـرب، كـما ترحـل إليهـا أخواتهـا رقيـة وأم كلثـوم وفاطمـة الزهـراء، وتـصبح ذات يـوم لتسمع عـن حـرب عنـد بـدر بين قـريش والمـسلمين وفي الأولـين زوجهـا ووالـد طفليهـا، وفي الآخـرين أبوهـا ﷺ فتبيـت ليلتها صابرة وهي تخشى ألا تطلع الشمس في اليوم التالي إلا وهي أرملة أو يتيمة، وينتصر محمد، ويأسر المسلمون زوجها، فتفديه بأعز ما لديها قلادة سبق أن أهدتها لها الأم الحبيبة خديجة يوم زفافها...

ثم ينزل حكم الله في الإسلام بمفارقة الزوجة المسلمة لزوجها الكافر، فتظل زينب على إيمانها، وتفارق زوجها مهاجرة إلى يثرب وما أن تنقضي فترة حتى تجد فجأة أبا العاص بن الربيع على باب دارهـا في يثـرب، وهـو لا يـزال كـافرا ويخبرهـا أنـه هارب من مطاردة بعض المسلمين له، فتصيح أيها النـاس إني أجـرت أبـا العـاص بـن الربيـع، ويقرهـا الرسـول والمسلمون على ذلك، فالمسلمون يسعى بذمتهم ويجير عليهم أدناهم، وهي تقول لأبيها: يا رسول الله إن أبا العاص إن قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد، وإني قد أجرته، فيدنو منها أبوها ﷺ في عطف وتأثر يذكرها بتعاليم الإسلام ويقول: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له...».

وتظل زينب ترعى ولديها من أبي العاص وهي مؤمنة بالله عز وجل رعاية لشريعته متبعة لهداه صابرة لقضائه، حتى أضاء الله بنوره قلب زوجها، وشـهد أن لا إله إلا الله، وأن محمـدا رسـول الله، وعـاد إليهـا وإلى ولديـه منهـا أكثـر حبـا وفهـما وإخلاصا.

نعم ما أحوج هذا العصر إلى نساء صالحات مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات... نعم مسلمات؛ لأن الإسلام طريق الإيمان طريق الصلاح طريق العلم طريق الاستقامة ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾.. نعم مؤمنات بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله، لا يفرقن بين أحد من رسله وقلن سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.. ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾... قانتات أي طائعات، والطاعة تاج المرأة في أعين والديها وزوجها، وسبب رفعة شأنها عند ربها وقومها.. تائبات أي راجعات إلى أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله عليه الصلاة والسلام، مستغفرات لما فرط منهن من ذنوب، عابدات لله تعالى ذاكرات له خاشعات ساجدات صائمات... ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾.

وهناك صفات ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم للنساء الصالحات. ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾...

وذلك أن اتباع هذا السلوك يحفظ للمرأة حياءها، والحياء نصف الإيمان ولا شك أن غض البصر عن جميع المحرمات يحول دون الوقوع في الفتنة؛ لأن البصر هو الباب الأكبر إلى القلب ورائده، وأعمر طرق الحواس إليه، «ولا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية» كما قال المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن النظرة الأولى لا تملك، لا سيطرة لك عليها، فلا تدخل تحت خطاب تكليف، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا بخلاف النظرة الثانية... ولا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تبدي زينتها إلا لزوجها، أو لمن هي محرمة عليه على التأبيد، عدا ما ظهر من هذه الزينة، وقد تكرر النهي عن إبداء الزينة في الآية أكثر من مرة لأن المرأة شغوفة باستعراض جمالها، والتباهي بزينتها، ومن النساء من يحلو لها أن تضرب برجلها أو تأتي حركة يعلم بها الآخرون ما تخفيه من زينتها، وقد قال ﷺ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركت (أي حاضت) أن تظهر الا وجهها ويديها إلى هاهنا» والخمار هو ما يستر رأس المرأة يجب أن يلتف لستر الصدر وهو ما عبر عنه القرآن بالجيوب. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

تلك صفات المرأة الصالحة وهذه مكانتها في الإسلام...

فإلى شبابنا الذي يبحث عن الحب والسعادة والدفء والحنان نقدم نموذج المرأة الصالحة... لقد حض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الزواج من المرأة الصالحة وفضلها على غيرها من النساء إذ قال «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» وبالتالي «لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يردين، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل» وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.. وصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خير له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها ومالها».

ولا غرو فطاعة المرأة لزوجها فيما هو مباح دليل حبها له، وتعاطفها معه، ورغبتها في معاونته، وهي بعد استدامة للمودة والرحمة بينهما، وتأكيد لحسن الصلة بينهما، مما يزداد معه الزوج حبالها، ورغبة فيها، ووثوقا بها، واطمئنانا إليها، وعرفانا بفضلها. وتزينها له مما يبهج نفسه، ويدخل السرور إلى قلبه، ويكفيه شر الوقوع في الإثم، فيستغني بها عن النظر إلى غيرها، والمرأة لا تسر الرجل بأناقتها أو حسن هندامها فحسب؛ بل تسره أيضا بلباقتها وحسن بيانها، ودقة تقديرها لظروفه وأحواله، فإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله: تصون عرضه وتحمي شرفه، ولا تمكن أحدا من أن يجرح شعوره، أو ينال من عاداته وتقاليده التي لا تخالف الدين، حتى لو كانت كلها ثقة في نفسها، فلا تخرج بغير إذنه، ولا تستقبل آخرين بغير مشورته ورأيه، ثم هي حافظة لماله لا تنفقه في غير الوجوه التي يجب أن ينفق فيها، ولا تنفق منه بأكثر من حاجتها... وعليها إن رأته مفرطا في صيانتها، يستحضر لها من الغرباء من يستحضر، ويطلب منها أن تستقبلهم، أو يطلب منها أن تذهب معه إلى أمكنة تؤذيها، عليها أن تنصحه في نفسها وتبصره بما يؤذيها وترشده إلى ما يصون سمعتها وشرفها، وكذلك الأمر إن وجدته متلافا لماله أو مسرفا أو مقترا في إنفاقه، فعليها أن تنصحه بما يحفظ ماله ويجعله بنعمة ربه يحدث، وبفضل الله يجود في غير تبذير أو تقتير.

ما أحوج هذا العصر إلى المرأة الصالحة... نبيلة الخلق وافرة الفضل مبسوطة اليد عظيمة القلب صافية القريحة نافذة اللب مسلمة قانتة صادقة صابرة خاشعة متصدقة ... ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١١٦)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

رؤساء هيئة التدريس:

ظلت دار العلوم/ديوبند منذ نشأتها أكبر مركز لعلم الحديث النبوي، وهذا ما يجذب الطلاب إليها من أكناف البلاد البعيدة. وتولى رئاسة هيئة التدريس بها دوما علماء كانوا أفذاذ الرجال في العلم والمعرفة وخاصة الحديث النبوي بجانب الزهد والتقوى والسلوك والمعرفة، فكان طلاب العلم يستفيدون منهم الفيوض الباطنة بجانب العلوم الظاهرة.

١- الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله:

وأول من احتل هذا المنصب العظيم في دارالعلوم/ديوبند هو الشيخ محمد يعقوب النانوتوي رحمه الله، الذي تلقى العلم على والده الشيخ مملوك علي وعلى الشاه عبد الغني المجددي الدهلوي رحمهما الله.

ولد الشيخ النانوتوي في ١٣/ صفر عام ١٢٤٩هـ، وأرخوا لاسمه بـ«منظور أحمد»، و«غلام حسين» و«شمس الضحى».

وحفظ القرآن الكريم في «نانوته»، وبلغ من عمره أحد عشر عامًا في المحرم ١٢٦٠هـ، فاستصحبه والده إلى دهلي، فبدأ عليه قراءة كتاب «ميزان ومنشعب»، و«كلستان». وقرأ عليه جميع العلوم المتداولة، وأسند الحديث عن الشاه عبد الغني المجددي، وكان مثل والده في العلم المنقول والعلم المعقول، وعلى منتهى الذكاء والتقوى.

وتوفي الشيخ مملوك علي في ذي الحجة عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م، فمكث بعد ذلك عامًا في دهلي، ثم عُيِّنَ مدرسًا في الكلية الحكومية في «أجمير». فجاء في «المكتوبات اليعقوبية»:

«تحول إلى «أجمير» موظفًا براتب قدره ثلاثون روبية، وكان صغير السن جدا، ولما رآه مدير الكلية في «أجمير» قال: نعم الشيخ رجلا، إلا أنه صغير السن. وعرض عليه منصب نائب الحاكم في المنطقة بتوصية من مدير الكلية، فأبى، ثم أرسلوه إلى مدينة «بنارس» براتب قدره مئة روبية، ثم عُيِّن نائبًا للحاكم وأرسل منها إلى «سهارنفور» براتب قدره مئة وخمسون روبية. وهنا وقع حادث الغدر»[1].

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

فمكـث في تلـك الأيـام في «نانوتـه»، وقـدم استقالته من الوظيفة الرسمية، وتخلى عنها، وتوظف في مطبعة المنشي ممتاز علي في «ميروت»، فيقول في «سوانح قاسمي» بخط يده:

«وأنشأ المنشي ممتاز علي مطبعة في «ميروت»، فطلبني حضرة المولوي - الشيخ محمد قاسم النانوتوي- لما بيني وبينه من الصداقة القديمة، فتوظف كاتب هذه السطور في هذه المطبعة بعد أن مر بكل من «بريلي»، و«لكناؤ»، و«ميروت»[٢]. وقدم عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م ديوبند، وولي رئاسة التدريس بها، وكان أول شيخٍ للحديث فيها. وتخرج كثير من أهل العلم البارزين بتعليمه وتربيته، تلألؤوا شموسًا وأقمارًا في سماء العلم والفضل. وتلقى عليه (٧٧) طالبا علوم النبوة في مدة (١٩) سنة، منهم: الشيخ عبد الحق الفورقاضوي، والشيخ عبد الله الأنبيثوي، والشيخ فتح محمد التهانوي، وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والشيخ خليل أحمد الأنبيثوي، والشيخ أحمد حسن الأمروهي، والشيخ فخر الحسن الكنكوهي، والشيخ الحكيم منصور علي المراد آبادي، والمفتي عزيز الرحمن الديوبندي، والشيخ أشرف علي التهانوي، والحافظ محمد أحمد، و الشيخ حبيب الرحمن العثماني رحمهم الله وغيرهم من مشاهير العلماء الأفذاذ.

ولانغلولو قلنا - نظرا إلى الشيخ محمد يعقوب وفيوض تلامذته-: إن جميع العلماء في الهند وباكستان وبنغلاديش وأفغانستان وآسيا الوسطى معظمهم ممن نهلوا من هذا المنهل العذب. وجاء فيما يتعلق بحلقة تدريسه في «أشرف السوانح» ما يلي:

«كان الشيخ محمد يعقوب - علاوة على براعته في كل علم وفن- من كبار رجال الباطن والشيوخ الكاملين. وقد استفاد الشيخ أشرف علي التهانوي كثيرا من الفيوض والبركات منه رحمه الله. وكان الشيخ التهانوي يكثر من ذكر أقواله وأحواله وحقائقه ومعارفه ويتلذذ به. وكثيرا ما يقول: ليست حلقة التدريس إلا حلقة العناية والتوجه، فكان يدرس التفسير ويشرح معاني الآيات الكريمة، وعيناه تذرفان الدموع»[٣].

وقطع الشيخ محمد يعقوب مقامات السلوك والمعرفة على الحاج إمداد الله المهاجر المكي، وكان يسوده في الغالب حالة من الجذب والكيف، ولايلقي لعلائق الدنيا بالا. ورسالته إلى المنشي محمد قاسم النيا نكري-أحد مريديه- يشكل صورة من السلوك والمعرفة ودستورًا للعمل في حقائق التصوف. وهي كتاب جامع لسالك الطريق. ويرى الفاضل محمد أيوب القادري - أحد أصدقاء كاتب هذه السطور- أن المكتوبات اليعقوبية -فيما يبدو- نسخة أردية موجزة للشيخ مخدوم جهانكير أشرف السمناني -المتوفى عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م- في السلسلة الجشتية. ومقصود الحياة لهذه المكتوبات هو اتباع السنة النبوية وطاعة الله تعالى[٤].

ورغم استيلاء الجلال والجذب على طبيعته، وكان من أثر مهابته أن كان الناس يهابون أن يكلموه

-كان يلقى كل أحد بالأخلاق الحسنة والتواضع. وكان على دأب سلفه مطبوعًا على الاستغناء والتعفف. قيل له: إن الأمير الفلاني يرغب رغبة أكيدة في أن تزوره يومًا من الأيام. فرد الشيخ قائلا: «سمعنا أن العالم الذي يدخل على الأمير هذا يمنحه الأمير مئة روبية، وحيث إنه يدعوني بدوره فربما يعطيني مئتين. وكم يومًا يغنينا مئة أو مئتا روبية؟ لن أشوه سمعة العلماء بالدخول عليه»(٥).

ويقول الحكيم أمير أحمد عشرتي- كاتب ديباجة المكتوبات اليعقوبية-:

«يوجد مئات التلامذة والمريدين وتلامذة التلامذة له في بلاد الهند، وكابل وبخارا وغيرها، وهو جامع علوم المعقول والمنقول، والفاضل الأجل، والعالم وبجانب ذلك كان سالكا مجذوبًا، وكما كان طبيبًا روحيًا كذلك كان طبيبًا للأمراض الظاهرة.

وكان حسن الدل والسمت، وحسن الخلق، وحسن الخصلة، حسن اللهجة، وحسن الكلام. و صاحب كمالات ومكاشفات كثيرة، وتنبأ بأشياء كثيرة وقد صدقت بعضها، وننتظر سائرها»(٦).

وسمع للشيخ قصص وكرامات عجيبة. وذات مرة تطرق الحديث إلى استيلاء الإنجليز على الهند استيلاء يعز زعزعة أقدامهم منها. وكان الشيخ حاضرًا في المجلس، فاندفع قائلا: «ما ذا قلتم»؟. إنهم يمسون حكامًا ويصبحون وقد طوي حكمهم في الهند من غير دم مهراق طي السجل للكتب».

وهل يشك أحد أنه صدق ذلك في الليلة المتخللة بين ١٤ و١٥/ أغسطس عام ١٩٤٧م.

ساق في «أرواح ثلاثة» قصة عن رجل شهد الحادث، فقال: احتفلوا في تلك الأيام بتتويج ملكة فيكتوريا، وكان الشيخ يعقوب نازلا في دهلي، وكان يغيب في النهار في الغالب. يقول الراوي: قلت له: أين كنت؟ فقال: قيل: سنعمِّر كل مكان تطؤه قدماك في دهلي، فأتجول في أطراف المدينة، لتعود الأماكن الخراب عامرة من جديد.

قال الراوي: بدأ المكان الذي وطئته قدما الشيخ يعود إليه العمران وسمي بـ«دهلي الجديدة»(٧).

وحج مرتين: الأولى مع الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله عام١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م، وقد صحبه في هذه الحجة كل من الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي، والحاج محمد عابد الديوبندي عن طريق «بنجاب» و«السند»، وقد فصَّل الشيخ في البياض اليعقوبي ذكرى هذه الرحلة. وحج مرة أخرى عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، وصحبه في هذه المرة كل من الشيخ محمد مظهر النانوتوي، والشيخ محمد منير النانوتوي والشيخ الحكيم ضياء الدين الرامفوري وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي وغيرهم بجانب نحو مئة نفر من غيرهم(٨).

وكان المولوي جمال الدين(٩) – مدار المهام في بوبال- من تلامذة الشيخ مملوك علي، وبناء على هذه العلاقة طلب الشيخ محمد يعقوب براتب شهري كبير إلى «بوبال»؛ ولكنه لم يرضَ بالاستقالة من

دارالعلوم/ديوبند وإن كان راتبه فيها زهيدًا. وأرسل ابن أخته الشيخ خليل أختر الأنبيثوي مكانه.

وكان الشيخ محمد يعقوب يحمل مذاقًا شعريًّا أيضًا، وكان يتلقب في شعره بـ«كمنام». وكان شاهد في دهلي أيام تحصيله الدراسي الشعراء الأفذاذ أمثال «غالب»، و«مومن»، و«ذوق»، و«صهبائي»، و«آشنا». وطرق أسماعَه ضجات أمسياتهم الشعرية. وأشار في بعض رسائله إلى تلميذه ومريده المنشي محمد قاسم النيانغري بأن يقرأ كلام الشعراء: «درد»، و«سودا»، و«ذوق»؛ فإنه يحمل تأثيرا كبيرًا. وذكر شعرُه الفارسي والأردي في «البياض اليعقوبي». ويوحي شعره إلى الحرقة والتألم والتوجع بجانب قدرته على الشعر.

ومن مؤلفاته ثلاث رسائل: «سوانح قاسمي» وهي رغم وجازتها تحتل مكانة سامية بالنظر إلى لسانه وبيانه و الأحوال والأحداث.

وكتاب آخر له «مكتوبات يعقوبي» يتضمن (٦٤) رسالةً، وهذه الرسائل سجلها ردا على الاستفسارات التي وجهت إليه، وفي طيات هذه الرسائل حلول للعقبات في طريق السلوك، وذكر المسائل الشرعية، وشرح دستور العمل للطريقة والسلوك.

والكتاب الثالث: بياض يعقوبي، سرد فيه أحوال الحج وأسانيد كتب الحديث، والمنظومات والرقى وغيرها، وفي نهايته وصفات طبية، وللشيخ أشرف علي التهانوي تعليقات لازمة على الكتابين.

قدم بلده «نانوته» قبل موته بأيام، وتوفي بها في مرض الهيضة في ٣/ربيع الأول عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م[١٠].

جاء في مذكرة «مكتوبات يعقوبي»:

«بعد الفراغ من صلاة العشاء من ليلة ١/ربيع الأول عام ١٣٠٢هـ فوجئ الشيخ محمد يعقوب رحمه الله بمرض الهيضة، فأغمي عليه، وتوفي نحو الساعة الواحدة من يوم السبت، وقبره في الحديقة الجديدة التي يقوم عليها معين الدين - على شارع سهارنفور شمالا من «نانوته». فوقعت هذه الكارثة ، إنا لله وإنا إليه راجعون»[١١].

وتجد تراجمه وأحواله هنا وهنا من «مكتوبات يعقوبي»، و«أرواح ثلاثة».

٢- الشيخ السيد أحمد الدهلوي رحمه الله:

من العلماء الأجلة، كان إمام عصره في المنقولات بجانب المعقولات وخاصة الرياضي والهيئة فقد وصل صيته فيهما إلى أوربا. وكان الشيخ محمد قاسم يقول: «لقد رزق الله تعالى المولوي السيد أحمد من الاستعداد والمناسبة مع علوم الرياضي ربما لم يحظ به حتى مخترعوها».

استدعي مدرسًا إلى دارالعلوم/ديوبند في السنة الثالثة من نشأته عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، وأسند إليه منصب رئاسة هيئة التدريس بعد وفاة الشيخ محمد يعقوب رحمه الله، واستمر عليه ست سنوات، و تخرج عليه في دورة الحديث الشريف (٢٨) طالبا، وحج عام ١٣٠٦هـ وهو رئيس هيئة التدريس بدار العلوم/ديوبند.

واستقال من دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٥م وتحول إلى «بوبال»، وبها توفي.

وبايع الشيخ السيد أحمد العلامة الشيخ محمد قاسم النانوتوي رحمه الله، وقال الشيخ في «مثنويه» المسمى «زير وبم» في حاشيته:

«كان الشيخ -السيد أحمد- له يد طولى وخاصة في فن الرياضي، واشتهرت براعته في هذه العلوم»(١٢).

والأبيات التي علق الشيخ التهانوي عليها به ما يلي:

«دوئمى آن سالكِ شرعِ نبى
مولوى سيـــــد احمــد على
وصفِ ذهن أو اگر سازد رقم
ختم نبود بشكند صدها قلم
خاتم معقول وعلمِ فلسفه
هم رياضى وعلوم مشكلة
پارساؤ متقى كم گو، حليم
هم سخى وهم جواد وهم كريم
(وثاني سالكي شــرع النبي
المولــوي السيد أحمـــد علي
ولوذهبنا نَصِف عقلـــــه
انكسرت مئات القلم دون أن ينتهي
خاتم المعقول وعلم الفلسفة
والــرياضي والعلوم الصعبـــة
ورع تقي، قليل الكلام، حليم
سخي جـــــواد، وكـــريم)

وللأسف لم نطلع على ترجمة مفصلة للشيخ السيد أحمد.

* * *

الهوامش:

(١) المكتوبات اليعقوبية، ص٥، ط: مطبعة تهانه بهون، عام ١٩٢٩م.

(٢) سوانح قاسمي، ص ٢٠-٢١.

(٣) أشرف السوانح ١/٣٣، الناشر: المكتبة الأشرفية/ دهلي.

(٤) الشيخ أحمد حسن النانوتوي، ص ١٩٧، ط: مطبعة جاويد، كراتشي.

(٥) أرواح ثلاثة، مابين الحكاية رقم:٤٣٩-٤٤٠.

(٦) أرواح ثلاثة، مابين الحكاية رقم:٤٣٩-٤٤٠.

(٧) أرواح ثلاثة، مابين الحكاية رقم:٣٤٧.

(٨) مكتوبات يعقوبي، ص ١٥١.

(٩) المولوي جمال الدين من سكان قصبة «كوتانه» في ضواحي دهلي، ولد عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وتلقى العلم على الشاه عبد العزيز الدهلوي والشاه رفيع الدين. وتولى منصب رئيس الوزراء في إمارة بوبال السابقة، وكان على حب وإرادة عظيمة مع الشاه ولي الله دهلوي، قام بطبع عدد من كتب الشاه رحمه الله، من أبرزها: حجة الله البالغة، وإزالة الخفاء. وله كتاب اسمه «كوكب دري» ذكر فيه المعاني الأردية للكلمات القرآنية. وكانت بنته «ذكيه بيغم» زوجة النواب صديق حسن خان الأولى، فولدت له النواب علي حسن خان والنواب نور الحسن خان. وتوفي عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م. (مآثر صديقي ٢/٤٤-٥٧؛ مكتوب مولانا خالد الأنصاري البوبالي بتاريخ ٣١/أغسطس عام ١٩٥١م إلى كاتب هذه السطور.

(١٠) مكتوبات يعقوبي، ص ١٥٣.

(١١) مكتوبات يعقوبي، ص ١٥٣.

(١٢) مثنوي زير وبم، نقلا عن مجلة القاسم الصادرة عن دارالعلوم/ديوبند، العدد: المحرم عام ١٣٤٧هـ، ص١٩،٢٠.

* * *

القرآن والنفس البشرية

بقلم: الأستاذ/ الشيخ علي حسن العماري

اختلفت آراء العلماء قديمًا، ولا تزال تختلف آراء العلماء المحدثين حول الفطرة التي جبل عليها الإنسان.

فذهب فريق كبير من العلماء، ومنهم الفيلسوف اليوناني «سقراط» إلى أن الفطرة خير، ونفس الطفل في نظر سقراط وعاء لكل كمال.

وذهب فريق ثان، ومنهم أفلاطون إلى أن الفطرة شر، والنفس – في نظره – هبطت إلى العالم المادي من عالمها الروحي للابتلاء والاختبار، وهي لا تطهر إلا بالرياضة والمجاهدة.

وعلى هذا الرأي كثير من شعرائنا المتشائمين أمثال أبي العلاء المعري الذي يقول:

ونحن في عالم صيغت أوائله
على الفساد، ففي قولنا فسدوا

ويقول:

والشر في الجد القديم غريزة
فبكل نفس منه عرق ضارب

حتى الشعراء الذين كانوا أكثر تفاؤلا وصفوا الطبيعة البشرية في بعض تهويماتهم بأنها شر، ومن ذلك قول المتنبي:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفـــة فلعلـــة لا يظلـــم

وقول بعض الشعراء المحدثين – وكان حينذاك شابًّا في مقتبل العمر:

إنني – والعياذ بالله منـــي
من بني الإنس من هواة الشرور
صورتني الحياة من شر ماء
وتكونت من ضـــلال وزور

والأكثرون من العلماء الشرقيين والغربيين على السواء يرون أن الفطرة مستعدة للخير وللشر – ومن هؤلاء (أفلاطون) الذي يرى أن من الطبائع ما يميل إلى الشر بسهولة محزنة ومنها ما يميل – على الضد من ذلك – إلى الخير من تلقاء نفسه، وأن الله تعالى لم يسو بين الناس جميعا فيما وهب من ميول الخير كما لم يسو بينهم فيما قدر من ميول الشر.

وقد اضطرب رأي الإمام الغزالي، فرأى في موضع من كتبه أن الإنسان ولد خيرا بطبعه، ورأى في موضع آخر أن الإنسان ولد قابلا للخير والشر، ورأى في موضع ثالث أن الإنسان ولد وفي طبيعته الشر.

وقد ذكر أن ميل الإنسان إلى الحكمة، وحب الله، ومعرفته، وعيادته هو مقتضى طبعه، كالميل إلى الطعام والشراب، وأن ميله إلى السوء والقبائح غريب عليه، خارج عن الطبع، كالميل إلى أكل الطين الذي قد يغلب على بعض النفوس بالعادة، كما ذكر أن القلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان، وصلاحا متساويا وذكر

بعض الدارسين لكتبه وآرائه أنه يقول: إن الخطيئة أساسية عند كل إنسان.

ومن الفلاسفة الغربيين من يرى أن الطفل منذ ولادته إلى سن محدودة ليس له حياة أدبية، فلا تنسب فطرته لا إلى الخير ولا إلى الشر، لأنه لا يعقل ما يفعل.

ومن كتابنا من يرى رأيا ويذهب يستدل عليه من القرآن الكريم، ولا دلالة للآية على ما يرى، فقد ذهب بعض الكاتبين مثلا إلى أن الإنسان يستطيع بفطرته الابتعاد عن الله، والكفر بآياته، وذكر دليلا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وليس في الآية ما يشير من قريب أو من بعيد إلى أن الكفر بآيات الله في فطرة الإنسان.

بعد هذا التلخيص الموجز الذي أظنه وافيا لآراء العلماء في (الفطرة الإنسانية) نقف وقفتنا مع القرآن الكريم، فنرى آية من آياته صريحة واضحة في هذا الشأن، قال تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الفطرة أن الله خلق الخلق قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل، مساوقا للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن، ويستدلون على ذلك بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين وأمروهم أن يشركوا بي غيري» وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وفي بعض الروايات تكملة لهذا الحديث: «كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها» وقالوا في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ أي ما ينبغي أن تبدل تلك الفطرة، أو تغير أو لا صحة ولا استقامة لتبديل فطرة الله تعالى بالإخلال بموجبها، وعدم ترتيب مقتضاها عليها باتباع الهوى، وقبول وسوسة الشيطان.

ورد هذا التفسير بأن التبديل بهذا المعنى مقدور بل واقع قطعا، واختير عليه تفسير لعله أقرب وأصح، وخلاصته أن أحدا لا يقدر أن يغير خلق الله سبحانه وفطرته، فالمراد بالتبديل تبديل نفس الفطرة بإزالتها رأسا ووضع فطرة أخرى مكانها غير قابلة للحق، ولا متمكنة من إدراكه.

ومعنى ما ذهب إليه هؤلاء المفسرون أن فطرة الإنسان قابلة للخير والشر يأتيها من خارجها ولكن من العلماء الناظرين في القرآن – أيضا من يرون أن الإنسان خلق قابلا للخير والشر ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ وبقوله عز وجل في شأن الإنسان: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ وبقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ولا دليل في هذه الآيات على أن الفجور طبيعة وجبلة في النفس، لأن معنى الإلهام – هنا – الإفهام

فالله قد أودع في النفس الإنسانية العقل الذي يدرك طريق ا لفجور كما يدرك طريق التقوى، ومما يؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ فنسب الفعلين (زكى ودسى) إلى الإنسان.

وكذلك لا حجة في الآيتين الأخيرتين لأن معنى الهداية فيهما: الإرشاد إلى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ولا تدل (الهداية) على أن ذلك مودع في نفس الفطرة.

وبعض المفسرين يرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أن ذلك إرشاد إلى الخير فقط، لأن السبيل لا يطلق إلا على الهدى، ويفسر المراد من هداية السبيل بأنه نصب الدلائل، وبعث الرسل وإنزال الكتب.

والدليل على صحة تفسير الهداية بالبيان والإرشاد في الآيتين، والابتعاد بها عن معنى خلق ذلك في الفطرة قوله تعالى في آية (الدهر): ﴿نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ والاختيار لا يكون مع الإلجاء، وفائدة السمع والبصر إنما تظهر مع الحرية في العمل، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز.

آية واحدة من كتاب الله تحول دون تعميم الحكم على الفطرة بأنها كلها خيرة، هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

ففي هذا النص دلالة واضحة على أن الجزع عند مس الشر، والشح عند مس الخير صفتان خلق بهما الإنسان، وأودعا في الجبلة، وبذلك قال فريق من المفسرين، وجعلوا الاستثناء منقطعا، ولكن الذي تميل إليه النفس - وهو ما يتفق مع آية الفطرة ومع أحاديث الفطرة كذلك - أن غريزة حب المال التي أودعها الله في الإنسان لمصلحته ولتعمير الكون - كما سنشرح ذلك بعد حين - قد يحوطها من الظروف والأسباب ما ينحرف بها عن وجهتها النبيلة فتصير إلى الشح، وكثيرا ما يحدث ذلك، فبالغ القرآن في تصوير هذا المعنى فجعل الشح كأنه مخلوق مع الإنسان.

وفي ذلك يقول الزمخشري: «والمعنى أن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه، ورسوخهما فيه كأنه مجبول عليهما مطبوع، وكأنه أمر خلقي وضروري غير اختياري كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍۚ﴾ والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع ولأنه ذم، والله لا يذم فعله، والدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره، وظلفوها عن الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين).

والذي يعنينا من كلام الزمخشري أنه فهم الآية على أن ما فيها من قبيل المبالغة، وليس الهلع من الجبلة، أما بقية كلامه فموضع نظر.

وعلى هذا الوجه يكون الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ متصلا على معنى أن الناس جميعا يجزعون عند الشر، ويمنعون إذا نالوا خيرا إلا الذين وصفهم الله بعد ذلك من محافظتهم على الصلاة، وإيتائهم الزكاة إلى آخر هذه الصفات، فإن هؤلاء آثروا الآجلة على العاجلة، وعرفوا قيمة هذه الحياة فهم لا يجزعون ولا يمنعون.

* * *

هنا نغرس وهناك نجني

بقلم: الشيخ/ مصطفى الطير

نقرأ القرآن العظيم فنجد فيه آيات كريمة تذم الدنيا وتحذر من العمل لها ومن الحبو وفي تحصيل أسباب المتاع فيها، ومنها قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ الآية.

ونقرأ سنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فنرى فيها أحاديث عجيبة تدعو إلى نبذ أسباب الرفاهية فيها والابتعاد عن الاستكثار من ألوانها ومنها قوله ﷺ «ألهاكم التكاثر. يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت» وقوله: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

فإذا قرأنا ذلك قال قائلنا، لقد وضعتنا رسالة الإسلام الناسخة لما سواها من الأديان في موضع المواجهة لكل أصحاب الملل والنحل، ولا يمكننا الانتصار عليهم إلا إذا أعددنا لهم ما نستطيع من قوة، وللقوة دعامتان؛ إحداهما روحية والأخرى مادية. وتتمثل القوة المادية إلى جانب الجنود الشجعان المؤمنين في الحصون والقلاع ومختلف أنواع الأجهزة الدفاعية والهجومية على المستوى العالمي الرفيع، فهل نستطيع تحقيق هذه الدعامة المادية بدون مال، فإذا قلت كلا: قال: وهل يأتي المال إلا عن طريق يسار الأمة ووفرة مواردها منه حتى يستطاع جمع المال منها عن طريق الزكاة أو الضرائب المختلفة ليجتمع للدولة منه ما تحقق به أسباب المنعة من أعدائها والعزة والهيبة بين العالمين، فإن قلت: كلا أجابك متسائلا: هل هذا الذي حصلت به العزة والمنعة جاء إلا عن طريق العمل للدنيا؟

ثم قال: ألم يخلقنا الله لنعيش إلى نهاية آجالنا ونربي أولادنا، وننفق فيما أوجبه علينا من الزكاة والحج والجهاد؟ فإن قلت: بلى، قال. فلماذا حذرنا القرآن والسنة من العمل للدنيا مع أن العمل لها من ضرورات الدفاع عن الدين والوطن، كما أنه من ضرورات الحياة وتحقيق ما فرضه الله من الفرائض المالية.

والجواب أن تحذير الكتاب والسنة قائم على الاهتمام بالجانب الدنيوي وإهمال الجانب الأخروي

فإذا عملت لدنياك من أجل دينك ووطنك ونفسك وأسرتك، ولم يؤثر ذلك على أخلاقك وعقيدتك وعملك للدار الآخرة فإن عملك للدنيا يصبح واجبا شرعيا، فإن من القواعد الأصولية أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن أجل ذلك جاء الحض على الاشتغال بها قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ إلى غير ذلك من الآيات وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ هذه وهذه» وقال: «نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة» وقال كما جاء في سنن البيهقي «اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدا واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا».

وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال الإمام علي: «الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها» ولم يمنع سلفنا الصالح ورعهم وتقواهم عن الاشتغال بها وأداء حق الله فيما يكسبونه حتى أثرى بعضهم ثراء عريضا كما سنذكره فيما بعد تحت عنوان صور مشرقة لبعض الأغنياء فإذا جاء المال من سبيل مشروع كالتجارة والزراعة والصناعة وأنفق في طاعة الله، وما أحل الله من متع الحياة فإنه يرضى الله تعالى فليس على أهل الثراء بأس في أن يظهروا نعمة الله عليهم ويستمتعوا بها في قصورهم المشيدة وبساتينهم النضرة المثمرة وزينتهم المباحة، على ألا يتكبروا بهذه النعمة على عباده، ولا يطغوا في الأرض؛ بل يزدادوا به تواضعا وإقبالا على الخير ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾.

الكسب النظيف:

على كاسب العيش أن يطلب حلال الرزق فإنه هو المشروع على لسان النبيين والمرسلين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فالطيبات هي ما أحله الله من الأرزاق وقد أمر الله بأكلها جميع المرسلين وأتباعهم إلى جانب أمرهم بالعمل الصالح، ووعد الممتثلين وتوعد المخالفين بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

ومما جاء في تحريم الكسب الآثم قوله ﷺ: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به» وقوله «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار».

وبلغ من عقم الحرام وسوء عاقبته أن صاحبه يعاقب عليه ولو أنفقه في وجوه الخير، قال ﷺ: «من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك كله ثم قذفه في النار».

ولهذا كان السلف الصالح يتورعون عنه وعما

فيه شبهة، فإن علموا بعد الأكل أن ما أكلوه من إثم تخلصوا منه. روى البخاري عن عائشة قالت: «كان لأبي غلام يخرج له الخراج (أي يتكسب له) وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يومابشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام أتدري ما هذا. قال وما هو: قال تكهنت لإنسان فأعطاني، فأدخل أصبعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج، وقال: اللّٰهم إني أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء «والتكهن التحدث بالغيب وهو حرام وأجره حرام، وما كان على أبي بكر إثم في أكله دون علم، ولكنه فعل ما فعل ورعا وكراهة منه لما حرم الله.

مصادر الكسب المشروعة وغيرها:

مصادر الكسب المشروعة معروفة كالتجارة والزراعة والصناعة والاستخدام والميراث والهبة والهدية (فالحلال بين والحرام بين).

ومن الناس من يستحل الرشوة وهي ما يعطى بقصد الحصول على منفعة دنيوية ممن يأخذها وأولئك المستحلون لها يزعمون أنها هدية، وبالغ بعض آكليها فجعلوها شرطا لقضاء مصالح الناس، فليعلم آكلوها أنهم ما يأكلون في بطونهم إلا النار، سواء أخذوها بشرط أو بدونه فإنها سحت والسحت حرام، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية». وروى أبو حميد الساعدي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «بعث واليا على صدقات الأزد، فلما جاء إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمسك بعض ما معه وقال هذا لكم وهذا لي هدية، فقال عليه الصلاة والسلام: ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ثم قال: ما لي أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لي هدية، ألا جلس في بيت أمه ليهدي له، والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله يحمله، فلا يأتين أحدكم ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبعر ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ثم قال اللّٰهم هل بلغت».

وسئل ابن مسعود عن السحت فقال: يقضي الرجل الحاجة فتهدى له الهدية، وشفع مسروق شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها، وقال لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك، ولا أتكلم فيما بقى منها.

وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا (طيبا) فكافأتها بجوهر فأخذه عمر وباعه وأعطاها ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت المال.

فليعتبر بذلك من يعوقون مصالح الناس حتى يحصلوا على الرشوة، وليعلموا أنهم على شفا جرف هار.

فضل الكسب والحث عليه:

قد علمت مما سلف أن الدنيا مزرعة الآخرة، واعلم أن الناس ثلاثة أصناف:

صنف شغله معاشه عن معاده فهو هالك.

وصنف شغله معاده عن معاشه فهو فائز، لكنه مقصر لتركه فضيلة السعي في طلب الرزق بالكسب الشريف.

وصنف معتدل وهو من شغله معاده ومعاشه فعمل لكليهما وهو الذي ينبغي للمؤمن. فقد قال تعالى مادحا له: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحض على طلب الرزق «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة» وقال يحض على التجارة والصدق فيها: «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»، وقال يحض على الصناعة والنصح فيها: «أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح».

وقال يحض على التجارة: «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق»، وقال: «الأسواق موائد الله تعالى فمن أتاها أصاب منها».

وقال يبغض في السؤال: «لأن يأخذ أحدكم حبلة فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» وقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

وقال لقمان لابنه: يا بني استعن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابته رقة في دينه وضعف في عقله، وذهاب مروءته، واستخفاف الناس به.

وقال عمر: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللّهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة». وكان زيد بن أسلم يغرس في أرضه، فقال له عمر: أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم.

وسئل إبراهيم بن أدهم عن التاجر الصدوق أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة؟

فقال: التاجر الصدوق أحب إلي لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان، ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده.

وبالجملة أقول، على كل مسلم أن يتخذ له مهنة شريفة يتعيش منها فإنها تحفظ الكرامة، وتعين على الطاعة، وتبعث على الطمأنينة، والرضا، وتساعد على رفع مستوى الأمة، قال ﷺ: «إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس» ويعجبني ما قاله أبو سليمان الداراني: «ليست العبادة أن تصف قدميك، وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد».

مصارف المال المشروعة:

المصارف المشروعة للمال ثلاثة:

١- الأول أن ينفقه على نفسه في عبادة كالحج والجهاد، أو فيما يقويه عليها كالمطعم والملبس والمسكن والزواج ونحوها على قدر الكفاية، وهو يثاب على ما ينفعه في ذلك في حدود ما يعينه على دينه، أما ما زاد على ذلك فهو من حظوظ الدنيا فلا يثاب عليه لكنه مباح ما لم يصرفه عن الله تعالى أو – يطغيه على عباده.

٢- الثاني أن يصرفه في جهات خيرية عامة

كالمساجد والقناطر والمستشفيات والمدارس والمساعدة في تسليح الجيش والأوقاف المرصدة للخيرات، والصرف في ذلك دائم النفع لصاحبه ما دام يؤدي الغرض الذي أنفق من أجله لما فيه من نفع العباد المستمر.

٣- الثالث أن يصرفه بين الناس صدقة أو مروءة أو وقاية للعرض أو أجرة لعامل، والكل يؤجر عليه، أما الصدقة فعلى الفقراء والمساكين وهي تطفئ غضب الرب وتجعل صاحبها يوم القيامة في ظلها حتى يقضي الله بين عباده كما جاء في الحديث.

وأما المروءة فتكون على المياسير والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ومما يجري مجراها، وهذه لا تسمى صدقة لأنها لغير فقير ومسكين، ويثاب المنفق عليها لأن بها يكتسب العبد اصطناع المعروف وصفة الكرم وإحراز الإخوان والأصدقاء، وهذا مما يعظم الثواب فيه، وقد وردت أحاديث كثيرة في الهدية والضيافة وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر في مصارفها، على أن يقصد بها وجه الله تعالى.

وأما وقاية العرض ففي صرفه لقطع ألسنة المغتابين والسفهاء ودفع شرهم، ومنع هجو الشعراء وهذا غرض ديني يثاب عليه لقوله ﷺ: «ما وقى المؤمن به عرضه فهو له صدقة» كيف لا، وكيف المغتاب عن الغيبة ومنع العداوة المترتبة على الغيبة صدقة؟!

وأما دفعه للعامل في نظير عمله في متجرك أو مصنعك أو مزرعتك أو منزلك أو غير ذلك، ولا شك أنك تثاب على هذا، لأنك هيأت للعامل عملا شريفا يكسب منه عيشه، كما أنك أرحت به نفسك أو أهلك من بعض المتاعب ووفرت بعض الوقت للعبادة أو للقراءة أو راحة الجسد والأعصاب، فإن الإجهاد ضار بهما، وكل ذلك من الأغراض الدينية التي يثاب عليها.

صور مشرقة لمياسير المسلمين:

كان السلف الصالح يقدرون حق الله في أموالهم فكانوا ينفقون بسخاء في الأغراض العامةأو على المحتاجين فهذا أبوبكر رضي الله عنه. أسلم وعنده خمسون ألف درهم أنفقها كلها في سبيل الله تعالى، فكان يشتري منها الأرقاء المسلمين، الذين يعذبهم سادتهم لإسلامهم، ويعتقهم، وفي غزوة تبوك جاد بماله كله في تجهيز الجيش، فقال ﷺ: ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر، قال أبقيت لهم الله ورسوله.

وجهز عثمان بن عفان ثلاث مئة بعير وخمسين فارسا في غزوة تبوك، وأنفق على مجاهديها عشرة آلاف دينار فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللّٰهم ارض عن عثمان فإني عنه راض» وجاد عمر بن الخطاب بنصف ماله.

وفي عام المجاعة في عهد عمر، جاءت قافلة لعثمان بن عفان من الشام تبلغ ألف بعير محملة بالسمن والقمح وما يحتاج إليه الناس، فهرع التجار إليه لشرائها، فجرى بينه وبينهم الحوار الآتي:

بكم تشترون مني هذه القافلة، قالوا نعطيك ربحاخمسا في المئة من ثمنها، فقال وجدت من يعطيني أكثر فزادوه إلى عشر في المئة، فقال عندي من يعطيني أكثر، فقالوا: نحن تجار المدينة، وقد وصلت القافلة الآن، فمن الذين يعطونك أكثر؟ قال: إني وجدت الله يعطيني على الواحد عشرة، إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله، أشهدكم أنني بعتها لله وجعلتها صدقة على المسلمين وتبرع بها للشعب.

وكانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الصدقات، بعث إليها مرة بعطائها وقدره: مئة وثمانون ألف درهم. فتصدقت به، وليس عندها إلا ثوب قديم، وكانت صائمة، فقالت لها خادمتها: هلا اشتريت لحما بدرهم، لتفطري عليه، فقالت: لو ذكرتني لفعلت.

فانظروا كيف تذكر المساكين، وتنسى نفسها وصيامها؟

وكان الإمام الليث بن سعد واسع الثراء، إذ كان دخله سنويًّا يزيد على سبعين ألف دينار وكان يتصدق به كله، وكان لا يتكلم حتى يتصدق على ثلاث مئة وستين مسكينا.

ومن عجائب كرمه أنه اشترى دارا في المزاد، فلما أرسل من يتسلمها وجد بالدار أيتاما وأطفالا صغارا، فسألوه أن يترك لهم الدار، فلما أعلم الليث بذلك، وهبها لهم، ومعها ما يصلح شأنهم من المال.

وخرج عبد الله بن المبارك المحدث مع أصحابه إلى الحج، فاجتاز بعض البلاد، فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على المزبلة، فخرجت جارية من دار قريبة فأخذت الطائر الميت، ولفته، وأسرعت به إلى الدار، فلما سألها: لم أخذت الميتة؟ قالت: إنها وأخاها فقيران لا يجدان شيئا، ولا يعلم بهما أحد، فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. قال أبق منها عشرين دينارا، وأعط باقي الألف إلى الجارية، وعد بنا إلى مرو. فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ورجع ولم يحج.

وقد تفنن هؤلاء المياسير في أبواب البر، فمنهم من كان يقف على تزويج البنات. والشبان، فيتقدم الفتى أو الفتاة إلى قيم الوقف، فيعطيه من المال ما يفي بحاجة زواجه، ومنهم من وقف على تعويض الأطباق التي تكسر من الخدم والأطفال، فيذهب الخادم أو الطفل الذي كسر طبقه إلى قيم الوقف، فيعرض عليه جزءا من الإناء المكسور، فيعطيه مثله عوضا عنه ويعود به إلى ذويه، ويتقي شر العقاب.

وقد وقف صلاح الدين الأيوبي وقفا لإمداد الأمهات بالحليب اللازم لأطفالهن، وجعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزابا يسيل منه اللبن والحليب، وآخر يسيل منه الماء المحلى بالسكر، فتأتي الأمهات ليأخذن ما هن بحاجة إليه منهما، وغير ذلك كثير، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

* * *

الإسلام ونظام الحجر الصحي

بقلم: الأستاذ/ صلاح حسين شهاب الدين

الحجر الصحي هو المنع من دخول أرض الوباء، أوالخروج منها منعًا لانتشار العدوى بالأمراض المعدية السريعة والانتقال مثل الطاعون والكوليرا والتيفوس.

والحجر الصحي يعتبر أعظم نظام في الطب الوقائي وأقوى وسيلة يلجأ إليها الطبيب للوقاية من الأمراض الوبائية لحصر المرض في أضيق حدوده وحجبه في مهده الأول حتى لا ينتشر وتكثر الإصابة به(١).

والحجر الصحي بهذا المعنى ليس من مبتكرات الطب الحديث فلقد سبق الإسلام الطب الحديث بعدة قرون في تقريره نظام الحجر الصحي، وكانت للإسلام نظرة عميقة في حماية الإنسان مما قد يسبب له الآلام أو الأمراض، فلم يحرّم على الإنسان الاقتراب من أرض الوباء فقط، بل حرّم عليه أيضًا أنواعًا من الأطعمة والأشربة؛ لأنه وجد فيها ضررًا على الجسم وهلاكًا له.

إن الإسلام يرى في الإنسان خليفة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠).

وكل ما يضر أو يسيء إلى معنى الخلافة أو يضعف من قوته محرم شرعًا ليظل محتفظًا بمكانته وقوته كخليفة لله في الأرض، وعناية الإسلام بالحفاظ على سلامة وصحة جسم المسلم هو عناية بقوة المسلمين المادية والأدبية، فهو يتطلب أجسامًا تجري في عروقها دماء العافية، ويمتلئ أصحابها فتوة ونشاطًا، وللجسم الصحيح أثر لا في سلامة التفكير فحسب، بل في تفاؤل الإنسان مع الحياة والناس(٢).

من أجل ذلك وفر الإسلام أسباب الوقاية من العلل والأمراض بما شرع من قواعد، ثم بما رسم من حياة رتيبة يلتزم المسلم السير عليها.

والإسلام حين وضع أسس الطب الوقائي صبغ ذلك بصبغة دينية حتى يتمسك المسلم بهذه الأسس تمسكًا قويًّا، ويعمل بها لأنها صادرة عمن قال الله عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ (النجم:٣).

وإذا أردنا أن نصنف الطب الوقائي الإسلامي في مجموعات وقوائم وجدنا هذه القوائم كما يلي:

العناية بالنظافة

إن الدين الإسلامي أكثر الأديان عناية بالنظافة، وتعاليمه في النظافة من الوضوح والدقة

بحيث إن تقدم العلم لم يزد عليها شيئًا وإن كان قد أوضح تفسيرات لكل هذه الإجراءات، فمن الأوامر المبكرة في صدر الإسلام الطهارة الكاملة، يقول الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر:٤)، ومن الآيات القرآنية التي تأمر بالنظافة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ (النساء:٤٣).

في هذه الآية النص على نهي الجنب أن يقرب الصلاة إلا إذا اغتسل وتطهر من الجنابة سواء كان ذكرًا أم أنثى، وهذه ميزة في النظافة يمتاز بها المسلمون عن غيرهم الذين لا يغتسلون من الجنابة، وقد أثبت الطب أن في هذا الغسل صحة للأبدان وتنشيطًا للأجسام(٣).

ثم يأتي الأمر بالوضوء للصلوات الخمس كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾(المائدة:٦).

ومؤدى هذا النص أن المسلم الذي يريد الصلاة سيغسل وجهه، ويديه، ويمسح رأسه، ويغسل رجليه مرات متعددة في اليوم، زد على ذلك ما نادت به السنة النبوية من المضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين، وما فيها من نظافة للفم والأنف والأذنين وإزالة ما علق بها، وبذلك لا يكاد يعلق بجسم الإنسان درن أو قذر أو إفرازات بدنية حتى يأتي الوضوء فيزيل هذه الأقذار والأدران فيبيت المسلم نظيفًا طاهرًا(٤).

والمضمضة ونظافة الفم بالسواك التي سنها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أعظم صحة للفم ولم تأتِ مدنية تحافظ على سلامة وصحة الفم كمدنية الإسلام وغسل الأذن داخلها وخارجها يؤثر على عصبي القلب اللذين يسيران متلاصقين خلف الأذن، وهذا التأثير له دوره المنعش على مراكز المخ ومراكز القلب(٥).

وقد امتد هدي الإسلام في النظافة ليشمل شعر الرأس، فتجد دعوة الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «من كان له شعر فليكرمه» رواه أبو داود.

وفي المقابل تراه يعيب على الذي يترك شعره ولا يرجله، فعن زيد بن أسلم أن عطاء بن يسار أخبره قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بيده أن اخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته ففعل الرجل ثم رجع فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أليس هذا خيرًا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان» رواه مالك.

كما ندب الإسلام إلى تغطية أواني الطعام

والشراب حفظًا لها من التلوث أو الفساد بما ينقله الريح أو الذباب وصيانة لها من الحشرات الضارة.

«كذلك حث الإسلام على نظافة البيوت فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله طيب يحب الطيب، جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود» رواه الترمذي.

وتمتد نظافة المكان التي حث عليها الإسلام لتشمل المسجد والأسواق وأماكن العمل، والهدف من ذلك هو المحافظة على الصحة العامة لأن تراكم الأوساخ يعطي الحشرات والجراثيم مجالًا رحبًا للازدهار والنمو، فضلًا عن انبعاث الروائح الكريهة التي تزكم الأنوف»(٦).

هذه هي دعوة الإسلام في العناية بالنظافة والتي ينادي بها الآن الطب الحديث كوسيلة من الوسائل التي تحمي الإنسان من العلل والأمراض، لذلك كان إهمال النظافة عمومًا أمرًا خطيرًا، يقول أحد أطباء العصر الحديث في حديث له عن الآثار الضارة لإهمال النظافة: «هو مرض من أمراض الصيف المشهورة، والخلاص منه يكمن في كلمة واحدة هي النظافة في كل صغيرة وكبيرة، لا يزور أحد منا هذا الزائر الثقيل: «التيفود». جميع الأمراض التي تصيب الجهاز الهضمي تعتمد في الوقاية منها على النظافة في كل شيء»(٧).

ومن هنا تدرك عظمة الإسلام في تشريعاته التي وضعها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان من أجل حماية الجسم الإنساني من الأمراض.

التوسط في المأكل والمشرب

أمرنا رب العزة – سبحانه- بعدم الإسراف في الطعام والشراب وأوصانا رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ألا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع فإن كان لابد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس، وهذا واضح من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فيقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١).

ففي هذه الآية الكريمة أرشد الله عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافًا وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض وأعني بذلك عدم الأكل والشرب أو الإسراف فيهما، فحفظ الصحة في هاتين الكلمتين الإلهيتين(٨).

لذلك قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– «ماملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، وإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه وثلث لنفسه» أخرجه النسائي، وابن ماجه من وجه آخر عنده وله طرق أخرى، وقد روى هذا الحديث مع ذكر سببه فروى

أبـو القاسـم البغـوي في معجمـه مـن حـديث عبـد الرحمن بن المرفع... قال: «فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وهي مخضرة من الفواكه فوقع الناس في الفاكهة فغشيتهم الحمى فشكوا إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقـال رسـول الله -ﷺ-: «إنـما الحمـى رائـد المـوت وسـجن الله في الأرض، وهـي قطعـة مـن نـار، فإذا أخـذتكم فبردوا المـاء في الشنان فصبوها عليكم بين الصلاتين، يعني المغرب والعشاء، قال ففعلوا فذهبت عنهم فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لم يخلق الله وعـاء إذا مـلىء شرًا من بطن فإذا كان لابد فاجعلوا ثلثًا للطعام، وثلثًا للشراب، وثلثا للريح».

وهـذا الحـديث أصـل جـامع الأصـول الطـب كلها، وقد روي أن ابن أبي ماسوية الطبيب لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة قال: لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام ولتعطلت البيمارستانات ودكاكين الصيادلة، وإنما قال هذا لأن أصل كل داء التخم(٩).

ولم يعلـم هـؤلاء المـرضى أن أمعـاءهم قاسـت منهم لأنهم نسوا قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلًا فثلث لطعامه وثلث الشرابه وثلث لنفسه»(١٠).

فـالإسراف في الطعـام هـو الـسبب الحقيقـي للسمنة، والسمنة مرض، بل ومرض ضار، فنحن نعلـم تمامًـا أن الـسمنة تـسبب تـصلب الـشرايين وأمراض القلب، وتشحم الكبد، وتكون حصيات المـرارة، والـسكر بالـدم، ودوالي القـدمين والجلطـة، والروماتيزم المفصلي الغضروفي بالركبتين كما أنها تـؤدي إلى زيـادة ضـغط الـدم، وذلـك بالإضـافة إلى الأمراض النفسية التي يعاني منها البدين. وأيضًا الآثار الاجتماعية السيئة التي يواجهها البدين(١١).

لـذلك كانـت دعـوة الإسـلام إلى الاعتـدال في الأكل والشرب حفظًا منه على حياة وصحة المسلم لكي يعيش في هذه الحياة سعيدًا ينفع نفسه ويخدم دينه.

تحريم الإسلام لبعض الأطعمة

نهـى الإسـلام عـن كـل مـا يـضر الإنـسان في جسمه وعقله فحرم المطعومات الضارة بالصحة، كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة:٣).

ومـن الـشراب حرمـت الخمـر ومـا اشـتق منهـا ومـا شـابهها وقـد جـاء تحـريم الخمـر في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:٩٠).

وإنما حرم الله سبحانه وتعالى هذه الأطعمة والأشربة على المسلم؛ لأن فيها هلاكًا لمن يتناولها وقضاء عليه، فالميتة ما ماتت إلا بسبب قد يكون هذا السبب مرضًا لازم هذا الحيوان فترة طويلة حتى انتشرت الجراثيم وطفيليات المرض في كل جزء من أجزائه، فإذا تناول المسلم شيئًا من هذه الميتة أصيب هو الآخر ببعض الأمراض بسبب تناوله هذا اللحم المريض الذي قد يكون حاملًا لجرثومة المرض بعد طهيه(١٢). لأن هناك ميكروبات تنتج في الجسم سمومًا تؤذي الإنسان ولا تفسد بالطهي، وتسبب التسمم للإنسان إذا أكلها حتى بعد طهيها، كذلك وجود الدم في جسم الحيوان الميت يساعد على نمو الميكروبات في الجسم وسرعة فساد اللحم(١٣).

والطب الحديث يرى في أكل الميتة ضررًا كبيرًا على الإنسان؛ لأن الحيوان الميت لا يموت إلا لمرض أو شيخوخة، فإذا مات نتيجة المرض فإنه مما لا شك فيه.. لا يزال في جسمه بعد الموت مواد غير طبيعية وتسممية ضارة بجسم الإنسان الحي بعد أن تعقم من الجراثيم بطريق الحرارة، والجسم يشبه في هذه الحالة الغذاء المتخمر الذي مهما ظهر من الجراثيم بالحرارة، لايزال مضرًا بالإنسان وربما أدى الأكل منه إلى الوفاة... والميتة بالشيخوخة ضررها كضرر الميتة بالمرض؛ لأن الشيخوخة معناه انحلال أحد الأنسجة، وذلك مقدمة لانحلال آخر حتى تنحل جميعها، ويصبح الآكل في هذه الحالة آكلًا لأنسجة مريضة متحللة(١٤). وأما الدم: فإن أي سموم يمكن أن تصل إلى الجسم تمتص من الأمعاء، وتذهب للدم الذي ينقلها إلى الكبد للتخلص منها وتفرزها الكلى، إذن نجد الدم دائمًا محملًا بالجراثيم وأيضًا بالبكتريا السابحة، أو الفيروسات التي يستطيع التخلص منها والقضاء عليها، وتنقية الدم مما به فيصير الدم الخارج من الكبد نقيًا وتفرز الكلى ما بقي في الدم ليصير أكثر نقاوة(١٥).

كذلك وجود الدم بكثرة في أمعاء الإنسان يساعد على تكوين مركبات «نوشادرية» تؤثر على المخ وتحدث تغيرات مرضية قد تصل إلى حد فقد الإحساس والغيبوبة، وهذا يحدث نتيجة بلع الإنسان لكميات كبيرة من دمه نتيجة نزف في المريء أو المعدة، أو الأمعاء، كما أن هضم كرات الدم البيضاء يزيد من حمض البوليك في الدم وما يترتب على ذلك من أمراض(١٦).

من هنا، ولهذه الأسباب المتعددة كانت الحكمة الإلهية في تحريم أكل الدم، إلا ما أحله لنا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو الكبد والطحال وأما الحكمة في تحريم أكل لحم الخنزير فأنقلها لك من مجلة المسلم المعاصر من مقال للدكتور أحمد حسين صقر تحت عنوان «الخنزير وبعض أسباب تحريمه»، حيث

نقل هو أيضًا عن الدكتور رزقي من كتابه «عن الخنزير» ما نصه: «إن الخنزير يعتبر من أكبر الحيوانات لنقل الجراثيم والأمراض، وهو سبب كثير من الأمراض المتأزمة القاتلة والمعدية ومنها الديزنتاريا، والترايكينوسيس، والدودة الوحيدة، أو الشريطية، أو المستديرة، والعنقودية، واليرقان وفقر الدم والاختناق، وانسداد الأمعاء ومرض البنكرياس المزمن، وتضخم الكبد والإسهال والحمى وإعاقة النمو عند الطفل، والتيفوئيد وأمراض القلب والإجهاض، والعقم والموت المفاجيء[١٧]، والخنزير من الحيوانات التي تأكل كل شيء حتى البراز والميتة ومن طباع الخنزير أن الذكر منه لا يغار على أنثاه بعكس الحيوانات الأخرى، وقد وجد أن هذا الطبع يوجد أيضًا فيمن يأكلون لحم الخنزير أي أن أكل لحم الخنزير لا يغار على أنثاه.

و من أجل هذا أيضًا حرَّم ربنا أكل لحم الخنزير فتبارك الله رب العالمين[١٨].

وعندما نفكر في فائدة طريقة الذبح الإسلامية التي تتم بقطع الأوردة الموجودة في رقبة الحيوان ليخرج منها الدم ولتصبح أنسجته خالية من احتقان الدم فيها، نجد أن قتل الحيوان أو خنقه يجعل الدم يحتقن في أنسجة الحيوان ويصبح اللحم مليئًا بالدم المحتقن المتجلط المليء بالمواد الكيماوية الناتجة عن تفاعلات أنسجة الجسم وما به من جراثيم سابحة[١٩].

ومن أجل هذا حرّم ربنا أكل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا بعد تذكيته نظرًا؛ لأن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة يحتبس فيها الدم، فيؤدي إلى كثرة الجراثيم والتي تنتقل عند الأكل منها إلى جسم الإنسان، وأخيرًا نأتي إلى الأشربة المحرمة وهي الخمر وما اشتق منها، وما ينطبق عليها من حشيش وأفيون وهيروين وكوكايين، وهي تتفوق على الخمر من ناحية أضرارها الصحية والاجتماعية والاقتصادية.

«إنها من أعظم الأخطار التي تهدد البشر لا بما تورثه مباشرة من الأضرار السامة فحسب، بل بعواقبها الوخيمة أيضًا وجلبها المرض السل، والخمر والمخدرات توهن البدن وتجعله أقل مقاومة لكثير من الأمراض وتؤثر في جميع أجهزته وبخاصة الكبد والجهاز العصبي الذي يؤدي إلى الجنون والشقاوة والإجرام والموت فهي علة الشقاء والعوز والبؤس وجرثومة الإفلاس والمسكنة والذل، ومازالت تلك السموم بقوم إلا أودت بهم بدنًا وروحًا وجسمًا وعقلًا، وإذا كانت هذه الأضرار التي ظهرت للخمر والتي لم تظهر ويعلمها الخبير بطبائع الأشياء في مناط التحريم وهي السر في ثبوت تلك الأحكام لها في الإسلام، كان من الضروري

لـشريعة تبني أحكامهـا عـلى تحـصيل المنـافع ودفـع المـضار أن تحـــرم كـل مـــادة مـن شـأنها أن تحـدث مثـل تلـك الأضـرار أو أشـد، سـواء أكانـت المـادة سـائلًا مـشروبًا، أم جامـدًا مـأكولًا، أم مـسحوقًا مشمومًا(٢٠).

الابتعاد عن الأماكن التي بها أمراض معدية

مـن الوسـائل التـي وضـعها الإسـلام لحمايـة الإنسان من الأمراض المعدية العزل، بمعنى عـزل النـاس عـن مـصدر المـرض وورد في ذلـك جملـة مـن الأحاديـث النبويـة الـشريفة، فعـن فـروة بـن مسيك رضي الله عنه قـال: «قلـت يـا رسـول الله، إن عنـدنا أرضًـا يُقـال لهـا أبين هـي أرض ربتنـا وأرض ميرتنـا، هي شديدة الوباء، فقال: دعها عنك فإن من القرف التلـف» رواه أبـوداود وغـيره. (القـرف هـو مـداناة الوباء والمرض والتلف هو الهلاك).

لـذلك لا يجـوز للمـريض بمـرض متنقـل أن يخـالط الأصـحاء لمـا في ذلـك مـن خطـر انتقـال العـدوى، فعـن أبي هريـرة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- عـن النبـي -ﷺ- قـال: «لا يـوردن ممـرض عـلى مـصح» رواه الشيخان.

وعــن ابــن عطيــة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- عــن النبــي -ﷺ- قـال: «لا يحل الممـرض على المـصح وليحـل المصح حيث شاء» رواه مالك في الموطأ والطبراني.

ومـع أن النبـي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- كـان يحـرص على تطبيب نفس المريض إلا أنه كان يضع مصلحة المجتمـــع المـــسلم في المقـــام الأول، بحيـــث إذا تعارضت مع مشاعر فرد فإن مصلحة المجتمع هي الراجحـة، فعـن الـشريد ابـن الـسويد رضي الله عنـه قـال: «كـان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «ارجع فقد بايعناك» رواه مسلم والنسائي.

وفي حالـة ظهـور الوبـاء، فـإن كـل إجـراءات الحجر الـصحي يجب أن تتخـذ، وينفـذها المـسلمون طواعيـة لحمايـة المجتمـع، ولـو أدى ذلـك إلى أن يبقـى الفـرد في منطقـة الوبـاء ولا يغادرهـا حتـى لا يكـون سببًا في انتشاره وهو بذلك مجاهد في سبيل الله، وإذا مـات عـلى هـذه النيـة فلـه أجـر الـشهيد كـما ورد في أحاديث كثيرة صحيحة(٢١).

فقـد قـال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لـيس مـن عبـد يقـع الطاعون فيمكث في بلده صابرًا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد» رواه البخاري.

وقـال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إذا سـمعتم بـه بـأرض فـلا تقـدموا عليـه، وإذا وقـع بـأرض وأنـتم بهـا فـلا تخرجوا فرارًا منه» رواه البخاري.

وقـد يُقـال إن الخـوف مـن العـدوى يـدل عـلى ضـعف في يقين الإنسان وإيمانـه، أو أن هـذا هـروب من قضاء الله المقدر، ويُجاب عن هذا بما فعله عمر

بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من رفضه السفر إلى الشام حين ظهر الطاعون بها، فلما قيل له أتفر من قدر الله قال: نفر من قدر الله إلى قدر الله.

وما على الإنسان المسلم إلا أن يعمل بما أمر به رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويأخذ بالأسباب، ويترك الباقي على الله تعالى، فعليه ألا يدخل منطقة موبوءة بمرض معد إذا كان خارجها، وألا يخرج منها إذا كان بها مع الاعتقاد بأن كل شيء بيد الله تعالى «هذه بعض الإرشادات التي جاء بها الإسلام قرآنًا وسنة في المحافظة على الصحة، وعلاج الأمراض البدنية، وقد أثبت الطب صحتها وعظم نتائجها في الوقاية، وحفظ الصحة، وقد جاءت هذه الإرشادات بجانب الإرشادات الأخرى التي رسمها الإسلام لعلاج القلوب ووقايتها من أمراضها كالشهوة والغضب والحقد وما إليها مما يفسد على الناس مجتمعهم، وبهذه وتلك إذا ترسمها الإنسان سلم في قلبه وعقله، وفي صحته وبدنه.

فتسلم له أداة التفكير والنظر في معرفة الحق، وتسلم له آلات العمل في تنظيم الحياة وعمارة الكون، كما يحب الله ويرضى وبذلك تكتمل له سعادة الدنيا والآخرة»(٢٢).

* * *

المراجع

(١) الإسلام والطب، محمد عبد الحميد البوشي، ص ٥٨ و ٥٩، دارالقلم ١٩٦٥م القاهرة.

(٢) المنهج الإسلامي في رعاية الطفولة – لجنة من علماء الأزهر ص ١٣ بتصرف.

(٣) البيان في منهاج الإسلام – خلف محمد الحسيني، ص٣٠٢ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

(٤) دراسات في الثقافة الإسلامية – لمجموعة من العلماء ص ٥٤٤ مكتبة الفلاح الكويت، ط ٣، ١٩٨٣م.

(٥) القرآن الكريم والصحة النفسية – د. جمال ماضي أبوالعزائم، ص ٥٨، دار الهلال ١٩٩٤م.

(٦) حماية البيئة من التلوث رؤية إسلامية، م. محمد عبد القادر الفقي، ص ١٧ الأهرام التجارية – قليوب ١٩٩٥.

(٧) دراسات في الثقافة الإسلامية ص ٥٤٨ و ٥٤٩ مرجع سابق.

(٨) مختصر زاد المعاد، للإمام محمد عبد الوهاب، ص ٣٨٤ و ٣٨٥.

(٩) جامع العلوم والحكم – لابن رجب الحنبلي، ص٣٧٠، الناشر دار عمر بن الخطاب – الإسكندرية.

(١٠) الطب النبوي، د. علي مؤنس، ص ٢٧ و ٢٨، دار أخبار اليوم، ١٩٩٠م القاهرة.

(١١) المرجع السابق ص ٢٤ و ٢٥.

(١٢) دراسات في الثقافة الإسلامية مرجع سابق ص ٥٥٩.

(١٣) مدخل إلى الطب الإسلامي، أ. د. علي محمد مطاوع، ص ١٥٠ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٨٥ القاهرة.

(١٤) دراسات في الثقافة الإسلامية مرجع سابق ص ٥٥٩.

(١٥) الطب النبوي – مرجع سابق ص ٤١.

(١٦) مدخل إلى الطب الإسلامي، مرجع سابق ص ١٥٠.

(١٧) مجلة المسلم المعاصر، د. أحمد حسين صقر، مقال تحت عنوان «الخنزير بعض أسباب تحريمه» العدد ٢٥ ص ٤٧، ١٩٨١م.

(١٨) مدخل إلى الطب الإسلامي، مرجع سابق ص ١٥٣.

(١٩) الطب النبوي، مرجع سابق ص ٤٢.

(٢٠) الإسلام وقضايا الإدمان والسموم البيضاء، ص ٣٥ و ٣٦ وزارة الأوقاف المصرية ١٩٨٨.

(٢١) المدخل الإسلامي للطب، د. إبراهيم عبد الحميد الصياد، ص٢٠٩ و ٢١١ سلسلة البحوث الإسلامية ١٩٨٧م.

(٢٢) منهج القرآن الكريم في بناء المجتمع – للإمام محمود شلتوت، ص ٦٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٩٦.

الفضيل بن عياض وهارون الرشيد

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عميرة

حدث الفضل بن[1] الربيع قال:

حج أمير المؤمنين - هارون الرشيد[2]- فأتاني - فخرجت مسرعا.

فقلت: أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك.

فقال ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلا أسأله.

قلت: ها هنا سفيان[3] بن عيينة.

فقال امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعنا الباب فقال: من ذا..؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

فخرج مسرعا فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ لأتيتك.

فقال خذ لما جئنا له: رحمك الله. فحدثه ساعة ثم قال: «عليك دين»..؟

فقال: نعم.

فقال: أبا العباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى على صاحبك انظر لي رجلا أسأله.

قلت ها هنا عبد الرزاق[4] بن همام.

قال: امض بنا إليه فأتيناه فقرعنا الباب فخرج مسرعًا.

فقال: من هذا؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك.

فقال خذ لما جئنا له.. فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين..؟

قال: نعم.

قال أبا عباس اقض دينه.

فلما خرجنا قال ما أغنى عني صاحبك شيئا.. انظر لي رجلا أسأله.

قلت: ها هنا الفضيل[5] بن عياض.

قال: امض بنا إليه.. فأتيناه فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن يرددها.

فقال: اقرع الباب.. فقرعت الباب.

فقال: من هذا..؟

قلت: أجب أمير المؤمنين.

قال: وماذا يريد أمير المؤمنين.

فقال: سبحان الله ما عليك طاعة.

فقال: أليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه).

ثم نزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت

فدخلنا نجول بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه.

فقال: يا لها من كف.. ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل ..؟؟

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي.

فقال له: خذ لما جئناك له، رحمك الله.

فقال: إن عمر بن عبد العزيز[٦] -رضي الله عنه- لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حيوة.

فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي.. فعد الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة من عذاب الله، فصم عن الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله، فليكن كبير المؤمنين عندك أبا وأوسطهم أخا، وأصغرهم عندك ولدا، فوقر أباك، وكرِّم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: «إن أردت النجاة غدا من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك. ثم مت إذا شئت.

وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوما تَزِلُّ فيه الأقدام فهل معك رحمك الله - مثل هذا..؟

أو من يشير عليك بمثل هذا..؟

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا حتى غشي عليه.

فقلت له ارفق بأمير المؤمنين.

فقال له: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: يا أخي.. اذكر طول السهر لأهل النار مع خلود الأبد.

قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد. حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له: (ما أقدمك..؟).

قال: خلعت قلبي بكتابك.. لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل.. فبكى الرشيد بكاء شديدا، ثم قال له: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين: إن العباس عم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جاء إلى النبي -ﷺ-.

فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة.

فقال له النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل).

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدًا ثم قال: زدني رحمك الله.

فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك.

فإن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (من أصبح لهم غاشا لم يرح رائحة الجنة[٧].

فبكى هارون الرشيد وقال له: عليك دين..؟

قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم يلهمني حجتي.

قال: إنما أعني من دين العباد.

قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره.

فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[٨].

فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادتك.

فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاح، وأنت تكافئني بمثل هذا..؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا.. فخرجنا من عنده فلما صرنا إلى الباب.

قال هارون الرشيد: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا.

هذا سيد المسلمين، فلما انصرفنا دخلت عليه امرأة من نسائه.

فقالت: (يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به.. ؟)

فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال:

ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل، خرج فجلس في السطح على باب الغرفة. فجاء هارون فجلس إلى جنبه. فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت:

(يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله) فانصرفنا.

علام تدل هذه الحادثة..؟؟

وما العبرة التي يمكن أن تأخذ منها..؟

حاكم الدولة يطلب النصيحة ويسعى في طلبها وهي لا تأتي إليه حتى لا تكون في مركز الضعف.

ولكنه بطرق الأبواب إليها ويلتمس الوسيلة للعثور عليها.

وتأتي النصيحة إليه عن طريق القدوة والمثل.

فهناك حاكم مثله كان يجمع حوله أهل الورع والتقى وعيون العلماء وخاصة المسلمين.

يجمعهم حوله للتذكر إذا نسي.

ويجمعهم حوله للنصيحة إذا ضل.

ويجمعهم حوله لاستشارتهم، وحتى لا يقطع أمرًا دونهم.

والشورى من قواعد الحكم في الإسلام، طلبها الرسول ﷺ بقوله: (أشيروا علينا أيها الناس).

وأمر الله سبحانه وتعالى بها في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[٩].

ومدح المؤمنين بها في قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾[١٠].

والحاكم هذا لم يفعل ذلك، حوله حاشية من خلصائه، ويحيط به رجال جاءت بهم متطلبات الحكم والسياسة، ولكنهم لا يدعونه إلى النجاة، ولا يرشدونه إلى طريق الحق، حتى يصل إلى العالم.

العالم الذي تربى في مدرسة القرآن.

وتمذهب بمذهب الحق، فصدع أمامه بكلمة الصدق.

ذكَّره بالدار الآخرة. وكان التذكير والتخويف بشيء يمس الحاكم ويتأثر به.

أهذه اليد لك..؟

ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله.. ؟؟

واختار العالم يد الحاكم لماذا..؟

لماذا اليد بالذات..؟

لأنها ليست كأيدي الآخرين.

يد الحاكم هي التي توقع وتصدر الأحكام وتعفو عن الناس وتقسم بينهم أموالهم.

يد الحاكم تشارك مشاركة فعالة في كل شؤون الرعية.

أيمكن أن تنجو غدا من عذاب النار..؟

نعم إن كانت على الجادة.. إن ابتعدت عن الجور وأقامت العدل بين الناس.

والحاكم في منطق الإسلام رجل من عامة المسلمين.

رجل يؤمن بالله ويغرس الإيمان في المجتمع.

رجل يصلي لنفسه ويؤم الناس في الصلاة.

رجل يخرج الزكاة ويشرف على جمعها من الآخرين.

رجل يصوم رمضان ويرقب حرمة الشهر في أرجاء المجتمع.

* * *

الهوامش:

(١) الفضل بن الربيع أبو العباس، وزير أديب حازم كان أبوه وزيرًا للمنصور العباسي، تولى الوزارة في خلافة الرشيد والأمين وعزله المأمون توفي بطوس عام ٢٠٨هـ.
[راجع البداية والنهاية ١٠:٣٦٣]

(٢) سبقت الترجمة له قريبًا من هذا.

(٣) سفيان بن عيينه بن ميمون ولد عام ١٠٧هـ ثم تولى الحرم المكي وسكن مكة، وتوفي بها عام ١٩٨هـ وكان حافظا ثقة واسع العلم، كبير القدر، حج سبعين حجة له الجامع في الحديث وكتاب في التفسير. [راجع تذكرة الحفاظ ١:٢٤٢]

(٤) من عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم. أبو بكر الصنعاني من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء كان يحفظ نحوا من سبعة عشر ألف حديث. له الجامع الكبير في الحديث وكتاب في تفسير القرآن توفي عام ٢١١هـ.
[راجع تهذيب التهذيب ٦: ٣١٠]

(٥) الفضيل بن عياض بن مسعود أبو علي شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي ولد في سمرقند عام ١٠٥هـ.
وتوفي في مكة عام ١٨٧هـ. [راجع طبقات الصوفية ٦:١٤ وصفة الصفوة:١٣٤)

(٦) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، الخليفة العادل ويطلق عليه خامس الخلفاء الراشدين ولد عام ٦١هـ بالمدينة وتولى الخلافة سنة ٩٩هـ ولم تطل مدته وقيل دس له السم وتوفي عام ١٠١هـ. [راجع تهذيب التهذيب ٧:٤٧٥]

(٧) الحديث رواه الإمام مسلم في الإيمان ٢٢٧ – ٢٢٨ والبخاري في الأحكام ٨ وأحمد ابن حنبل في المسند ٢٥:٥.

(٨) سورة الذاريات آية رقم ٥٦.

(٩) سورة آل عمران آية رقم ١٥٩.

(١٠) سورة الشورى آية رقم ٣٨.

* * *

عضوة اللجنة الوطنية للأقليات تزور الجامعة

بقلم: **أبو فائز القاسمي المباركفوري**

زارت الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند الآنسة «سيد شهزادي» - عضوة اللجنة الوطنية للأقليات في الهند يوم الاثنين٢١/ربيع الآخر عام ١٤٤٥هـ=٦/١١/٢٠٢٣م، وانعقدت جلسة قصيرة في استقبالها في الساعة الرابعة إلا الربع في دارالضيافة الجامعية تضم نخبة من أساتذة الجامعة بمن فيهم كاتب هذه السطور- محمد عارف جميل القاسمي- وعلى رأسهم مسؤولو الجامعة: فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم – رئيس الجامعة- وفضيلة الشيخ سيد أرشد المدني - رئيس هيئة التدريس بالجامعة، و وكيلا الجامعة فضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي، والمفتي محمد راشد الأعظمي حفظهم الله.

وقالت شهزادي خلال حديثها مع مسؤولي الجامعة في دارالضيافة: «كانت تراودني أمنية زيارة هذه الجامعة منذ أمد بعيد، وقد سمعت عنها كثيرًا وتحققت في مثل هذا اليوم».

واطلعت شهزادي على نظام الجامعة وخدمات أبنائها وبلائهم الحسن في تحرير البلاد ثم في تثقيف الشعب المسلم الهندي منذ نشأتها حتى اليوم. وتجولت شهزادي في مرافق الجامعة من المكتبة القديمة والمكتبة الحديثة قيد اللمسة الأخيرة، وجامع رشيد، وأعجبت كثيرًا بتقيد طلاب الجامعة بنظامها ولوائحها على أحسن ما يرام.

وسجلت شهزادي انطباعاتها الموجزة في سجل الزوار:

«بتاريخ ٦/١١/٢٠٢٣م قمتُ بزيارة للجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند، في سهارن فور، وتعتبر دارالعلوم/ديوبند أحسن مؤسسة لتعليم طلاب الأقليات العلوم الدينية على مستوى العالم».

سيد شهزادي

اللجنة الوطنية للأقليات

حكومة الهند».

اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية الهندية تعقد دورة هامة
في رحاب الجامعة الإسلامية دارالعلوم ديوبند

بقلم: **الأستاذ/ محمد عاصم القاسمي**

عقـدت اللجنـة التنفيذيـة لرابطـة المـدارس الإسـلامية الهنديـة التابعـة للجامعـة الإسـلامية: دارالعلوم/ديوبند دورتها في دار الضيوف التابعة لها يـوم الـسبت:٥/ربيـع الآخـر ١٤٤٥هـ الموافـق ٢٤/أكتـوبر ٢٠٢٣م برئاسـة فـضيلة الـشيخ المفتـي أبوالقاسم النعماني- رئيس الجامعة، وشيخ الحديث الـشريف بهـا، والأمـين العـام للرابطـة-. وتوزعـت أعـمال الـدورة على جلستين، عقـدت الجلسة الأولى الافتتاحيـة الـساعة التاسـعة صباحًا بـتلاوة آي مـن القرآن الكريم تشرف بها المقرئ عبدالرؤف – أستاذ التجويد والقراءات بالجامعة-.

وأصـدرت الجلـسة قـرارات وتوصـيات تخـص تحسين وإحكـام نظـام التعليـم والتربيـة، وإقامـة نظـام تدريب المعلمين، ومسيرة إصلاح المجتمع الإسلامي، وضرورة مواجهـة الـردة المتفـشية بـين أبنـاء وبنـات المسلمين، و إنشاء شبكة التعليم العصري في المدارس الإسلامية، وإقامة الكتاتيب الإسلامية في جميع البلاد.

وقـال فـضيلة الأمـين العـام للرابطـة في كلمتـه التـي ألقاهـا عـلى أعـضاء الرابطـة وممـثلي المـدارس الإسـلامية المنتـشرة في الولايـات الهنديـة المختلفـة: «هـذه الـدورة مـن دورات اللجنـة التنفيذيـة لرابطـة المـدارس الإسـلامية، تهـدف إلى تنـشيط المـدارس الإسـلامية وتعزيـز نظـام التعليـم والتربيـة، وحـل مشكلات المدارس الإسلامية بالتشاور».

وأضـاف قـائلا: «علينـا أن نقـوم بـدور بـارز ملمـوس في حمايـة المـدارس الإسـلامية واسـتقرارها وإنشاء شبكات الكتاتيب المحلية وتعزيز التضامن، وتوحيد صفوف المسلمين».

ولفت فضيلته أنظار الحضور إلى النبأ المنشور في صـحف ذلـك اليـوم الـذي يفيـد بـأن الحكومـة المحلية شكلت لجنة فحص المدارس وحماية حقوق الأطفـال وتمويلهـا ونظافتهـا وتنـسيقها ومراجعـة حساباتها وغيرها من الأمور. وينبغي لنا أن نتشاور في هـذه الأمـور في هـذه الـدورة. وأكـدت إجـراءات الفحص السابقة أن الحكومة تساهلت مع المدارس المنتمية إلـى أي مؤسـسة مـن المؤسـسات التعليميـة الكبرى، فينبغي أن نمعن النظر في طلبات التحاق المدارس الواردة من المناطق المختلفة.

وقـال فـضيلة الـشيخ الـسيد أرشـد المـدني حفظـه الله ورعـاه – رئـيس هيئـة التـدريس بالجامعـة-: «إن المـدارس الإسـلامية لعبـت دورًا بـارزا في الحفـاظ عـلى الـدين الحنيـف، ونـشره وتعزيـز أركـان التعلـيم الإسـلامي و التربيـة الدينيـة وخدمـة الأمـة الإسـلامية، وإن الأوضاع الراهنة في البلاد تتطلب التدرع بالصبر

والعزيمة من المسلمين عامة، والمدارس الإسلامية خاصة، فعلينا أن نسير وفق خطوات مشايخنا، ونعمل على تنشيط وتعزيز المدارس الإسلامية وتعميم فوائدها وثمراتها، وكذلك يجب علينا أن نتبع طريقًا يخرج أبناء صالحين للبلاد، وعلماء قادرين على الدعوة الإسلامية، وهذا لايمكن إلا إذا وضعنا نظام المدارس وفق منهج المبادئ الثمانية، ونعمل بكل إخلاص، ونخاف يوم القيامة، كما أنه من الضروري تجنب المساعدات الحكومية».

وممن تحدث في الجلسة الأولى من الدورة فضيلة الشيخ نعمة الله الأعظمي - حفظه الله ورعاه أستاذ الحديث في الجامعة- والشيخ رحمت الله مير القاسمي، والشيخ محمود حسن الخيروي، والشيخ محمد عاقل الدولت كرهي- من أعضاء المجلس الاستشاري بالجامعة، وآخرون من أعضاء اللجنة التنفيذية للرابطة.

وقدم الشيخ شوكت علي - المشرف العام للرابطة وأستاذ الحديث في الجامعة- تقرير الدورة السابقة للجنة وتقريرًا سنويًّا عن الرابطة.

وانتهت الجلسة الأولى في الساعة الثانية عشرة ظهرا بدعاء فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني حفظه الله.

وافتتحت الجلسة الثانية للدورة بعد صلاة المغرب في دارالضيوف التابعة للجامعة برئاسة فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني حفظه الله وبتلاة آي من القرآن الكريم تشرف بها المقرئ محمد إرشاد أستاذ التجويد والقراءات بالجامعة.

ونبَّه فضيلة الشيخ السيد أرشد المدني-حفظه الله- على أنه يجب -لأجل تعزيز نظام المدارس الإسلامية- على مسؤولي المدارس الإسلامية أن يركزوا عناية خاصة على تعليم السنوات الثلاث الأول من الصفوف العربية، وتدريب المعلمين الذين يمارسون التدريس في الصفوف الابتدائية على منهج دارالعلوم ديوبند».

ثم أبدى فضيلة الشيخ نعمة الله الأعظمي حفظه الله- في كلمته التي ألقاها- عن قلقه تجاه الخبر الذي نشر في صحيفة من عزم الحكومة المحلية على إجراء فحص لأربعة ألاف مدرسة. وتحدث الشيخ رحمت الله مير القاسمي-حفظه الله- حول نظام التعليم، وأكد الشيخ محمود حسن -حفظه الله-على تربية المعلمين. وأشار الشيخ مجيب الله الغوندوي -حفظه الله- إلى أهمية خلق الاستعداد والكفاءات في الطلاب، وتحدث وكيل الجامعة الشيخ المفتي محمد راشد حول تزويد طلاب المدراس الإسلامية بالعلوم العصرية، وأشار رئيس المجلس التعليمي للجامعة إلى بعض الأمور المتعلقة بالتدريس والامتحان، ولفت الأمين العام لجامعة مظاهر العلوم النظر إلى ضرورة التربية الفكرية لطلاب المدارس الإسلامية.

وأعرب الشيخ شوكت علي - المشرف العام للرابطة- عن قلقه العميق إزاء العدوان الإسرائيلي المتواصل الوحشي على فلسطين، وقدم قرارات عدة وافق عليها جميع الأعضاء.

وأعربت الدورة عن غاية تألمها وأسفها على وفاة

عـدد مـن الشخـصيات العلميـة والثقافيـة البـارزة في البلاد، منهم: الشيخ السيد رابع الحسني الندوي - عضو المجلس الاستشاري للجامعة ورئيس مجلس قانون الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند - والشيخ المفتي رفيع العثماني رئيس الجامعة دارالعلوم كراتشي، ورئيس هيئة وفاق المدارس في باكستان، والشيخ السيد شـاهد الحـسيني الأمـين العـام لجامعـة مظـاهر العلوم/سهارنفور وعضو المجلس التنفيذي لرابطة المدارس الإسلامية، والشيخ محمد إسلام القاسمي أستاذ دارالعلوم وقف ديوبند، وآخرون جميعًا.

وممن حضر جلسات الدورة كل من: فضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي- وكيل الجامعة-، والشيخ المفتي محمد أمين البالن بوري، والشيخ المفتي يوسف التاولوي، والشيخ محمد نسيم الباره بنكوي من أساتذة الجامعة، والشيخ رياست علي من أتراكهاند والشيخ المقرئ محمد أمين من راجستهان، والشيخ عبد القادر من ولاية «آسام»، والشيخ زين العابدين من ولاية «كراناتكا»، والشيخ علي حسن المظاهري، والشيخ محمد فاروق من ولاية «أريسه»، والشيخ المفتي سراج أحمد من ولاية «مني فور»، والشيخ داود ظفر من «دهلي»، والشيخ محمد خالد القاسمي من ولاية «هريانه» الجنوبية، وآخرون من شتى ولايات الهند.

وقـام الـشيخ شـوكت عـلي البـستوي بـإدارة الجلـستين، وتقـديم تقريـر عـن الفـروع الإقليميـة بجانب إسداء الشكر إلى الضيوف الكرام، وانتهت الجلسة الثانية الساعةَ التاسعة إلا الربع بدعاء فضيلة الشيخ السيد أرشد المدني حفظه الله رئيس هيئة التدريس ورئيس جمعية علماء الهند.

وأصـدرت الـدورة قـرارات تـدين الهجـوم الإسرائيلي على الفلسطينيين، جاء فيها:

إن هـذه الـدورة الهامـة للجنـة التنفيذيـة لرابطـة المـدارس العربيـة التابعـة لـدارالعلوم ديوبنـد تـدين القصف الإسرائيلي الغاشم المستمر على فلسطين مما أسـفر عـن مقتـل الآلاف مـن الأبريـاء بمـن فـيهم الأطفال والنساء بجانب الملايين الذين اضطروا إلى الرحيـل مـن منـازلهم، وحُرمـوا الحاجـات الأساسـية مـن المـاء والكهربـاء والـدواء، و تتعـرض المنـاطق الحضرية والمساجد والمستشفيات للقصف المستمر، نحـن نـستنكر ذلـك ونـدعو المجتمـع الـدولي إلـى الضغط على إسرائيل المستبدة المحتلة لوقف أعمالها الوحشية والانسحاب من غزة، والكف عن هتك حرمـة البيـت المقـدس، كـما يجـب إنهـاء الاحـتلال الإسرائـيلي لأراضي الفلـسطينيين، وإعـادة الحقـوق المدنيـة والإنـسانية. ونطالـب الحكومـة الهنديـة بمواصـلة سياسـتها السـابقة تجـاه فلـسطين، وهـذه الدورة أيضا تُدين العدوان الإسرائيلي ودعم أمريكا وبريطانيا لإسرائيل، وتطالب بما يلي:

(الـف) إزالـة العوائـق دون إقامـة الدولـة الفلسطينية المستقلة، (ب) ضرورة وقف الاضطهاد على الأبرياء و المشردين في غزة وفلسطين، كما يجب التنسيق لإعادة استيطانهم (ج) يجب أن تحمل الأمم المتحـدة والمجتمـع الـدولي إسرائيـل عـلى إخـلاء الأراضي العربية المحتلة بصورة فورية.

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

أو تخليهم عنها ولن يؤخر شيئًا، فالدنيا بخير، وإن ركب الحياة سائر، وإن الأمور مقضية، والشؤون ماشية ما شاء الله تعالى وقدره.

والواقع أن شغل منصب في مؤسسة - منصب الرئاسة أو وظيفة من الوظائف - مسؤولية وأمانة كبرى في عنق صاحبه. والواجب عليه قبل كل شيء أن يربأ بنفسه عن كل الأغراض الشخصية الضيقة والمصالح الحقيرة التافهة التي قد تخالج قلبه، وتحدث بها نفسه، وتسول له استغلاله.

إن الشريعة الإسلامية حرمت على المسلم أكل مال أخيه المسلم، «فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، فما بالك بمن يخون مال العامة، والتبرعات التي جاءت من هنا وهنا درهم فدرهم، ودانق فدانق، وفلس ففلس، جادت بها نفوس العامة والخاصة ليُحمل به الكَل، ويُعان به على نوائب الحق، ويُكسب به المعدوم.

ولعل ما نرى اليوم من العبث بالمناصب العامة والخيانة فيها وفي أموالها واستغلالها الفاحش المزري سواء في المؤسسات الحكومية أو الأهلية، والخيرية أو غيرها يشكل من أشراط الساعة؛ فقد أصبح مال هذه المؤسسات الوقفية والخيرية وغيرها مغنمًا. فعن علي بن أبي طالب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح، فلما صلى صلاته ناداه رجل: «متى الساعة»؟ فزبره رسول الله ﷺ وانتهره، وقال: «اسكت»، حتى إذا أسفر رفع طرفه إلى السماء، فقال: «تبارك رافعها ومدبرها»، ثم رمى ببصره إلى الأرض، فقال: «تبارك داحيها وخالقها»، ثم قال: «أين السائل عن الساعة؟» فجثا الرجل على ركبتيه، فقال: أنا بأبي وأمي سألتك، فقال: «ذلك عند حيف الأئمة، و تصديق بالنجوم، وتكذيب بالقدر، وحين تتخذ الإمامة مغنمًا، والصدقة مغرمًا، والفاحشة زيادة، فعند ذلك هلك قومك» [البزار:٥٠٧].

وعن أبي هريرة قال: بينما النبي -ﷺ- في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين- أراه- السائل عن الساعة»؟. قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فإذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» [صحيح البخاري:٤١].

وعن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة، حل بها البلاء». قالوا: يا رسول الله، وما هي؟ قال: «إذا كان الفيء دولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وبر الرجل صديقه، وجَفَا أباه، وأكرم الرجل مخافة شره، وكان

زعيم القوم أرذلهم، واتخذت القيان، والمعازف، وشربوا الخمور، ولبسوا الحرير، فانتظروا مسخًا، وخسفًا» [المعجم الأوسط:٤٦٩].

ونظرا إلى حساسية الوظائف والمناصب وخطورتها لمن ليس أهلا لها حذر النبي ﷺ من سؤالها، فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أوتيتها عن مسألة؛ وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة، أعنت عليها...» [صحيح البخاري:٢٥٤٣].

فهذه المناصب والوظائف أمانة في أعناق أصحابها وقد حذر الله- عز وجل- من خيانة الأمانة في قوله سبحانه: (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) [الأنفال:٢٧]، و وصف عباده المؤمنين في سورة «المؤمنون»، وفي سورة المعارج بأنهم يرعون الأمانات والعهود و ذلك في قوله سبحانه: (وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ)[المعارج: ٣٢، والمؤمنون:٨].

وحذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوالي والحاكم أن يولي على قوم رجلًا وغيره أكفأ وأحق منه، فعن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من استعمل عاملًا على قوم، وفي تلك العصابة من هو أرضى الله منه؛ فقد خان الله وخان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخان جميع المسلمين» [السنة لابن أبي عاصم:١٤٦٢].

والأمانة جاء إطلاقها في النصوص الشرعية على الطاعة والعبادة والثقة والوديعة والأمانة من غير إرادة الحصر فيها، فيدخل فيها كل حق يجب عليك أداؤه، وكل ما يجب حفظه فهو أمانة، قال الله تعالى: (فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ) [البقرة:٢٨٣]، وقال تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا)[النساء:٥٨].

وصدق القائل:

لا تحسبوا أن المناصبَ باقية
أو أنها يومًا ستبقى وافية
عاشرْ بمعروفٍ فإنكَ راحلٌ
واتركْ قلوبَ الناسِ نحوكَ صافية

و القائل:

إنَّ المناصبَ لا تدومُ لواحدٍ
إنْ كنتَ في شَكٍّ فأينَ الأوّلُ
فاغرسْ منَ الفعلِ الجميلِ فضائلاً
فإذا عُزلتَ فإنها لا تُعزلُ

والقائل:

وأعـــزُّ ما يبقَى وِدادٌ دائم
إن المناصبَ لا تدومُ طويلا

والقائل:

وكمْ مْن جِبَالٍ قَد عَلَت شرفَاتها
رجالٌ فَزَالُوا والجبالُ جبال

* * *

* *

المسؤولية المؤسساتية مغنم أم مغرم

تنتشر في طول الهند وعرضها وقفيات ومؤسسات خيرية حكومية وغير حكومية، تعمل على توفير التعليم المجاني، وما يتطلبه، وتخفف عن المنكوبين والمضطهدين والمتضررين وطأة الكوارث والطوارئ والفيضانات والاضطرابات و الانفلاتات الأمنية بشتى صورها وألوانها. والناظر فيها يصادفه وضع عجيب وغريب من التكالب على مناصبها و وظائفها، والتهافت عليها تهافت الفراش على النور، والعطشان على الماء، وفريد الدر من أسلاكه. وأصبح الشاغلُ لهذه المناصب والوظائف ينظر إليها على أنها خير وسيلة ومطية ذلول لتحقيق ما يرنو إليه عينه، ويهفو إليه قلبه من الجاه بين أبناء بني جلدته، و مجتمعه، ولإشباع أنانيته، وجمع المال الوافر؛ وفرصة مواتية للتشفي من معارضيه ومخالفيه، فيصبح ثريًّا ثراءً فاحشًا بعد أن أمسى فقيرًا معدمًا، يمتطي أفره السيارات، وأجود المراكب المتاحة للملوك والسلاطين.

إن كثيرًا ممن حفيت أقدامهم في البحث عن هذا المنصب والتسلق إليه عن جدارة أو غير جدارة تراهم إذا نالوه، يرون أنفسهم هي الأجدر بهذه المسؤولية، والأكثر قدرةً على تحمل أعباء هذا المنصب، وأن الذين سبقوهم أو سيلحقونهم كلهم خُرق فاقدو الأهلية، وعديمو الشعور بالمسؤولية، وصفر الأيدي من القدرات والصلاحيات التي تؤهلهم لهذا المنصب أو لتلك الوظيفة، وبالتالي لن تقوم هذه المؤسسة أو تلك، ولن يصلح أمرها، ولن تستتب شؤونها إلا على أكتافهم، وبتوجيهاتهم «النبيلة» الواعية السديدة، فهم كانوا أجدر بالارتقاء إليها وأولى بالبقاء فيها، وأنهم خالدون فيها، وما لهم من زوال.

لقد سولت لكثير من أمثال هؤلاء المسؤولين النفعيين المغرضين نفوسُهم أن عدم توليهم لهذه المناصب أو الوظائف أو تخليهم عنها يجرُّ وبالًا وبلاءً عظيمًا على العمل المؤسساتي، وأن ركب نشاطاتها وأعمالها يتوقف ويتعطل، ويصاب بالخمول أو الخمود. فلايمضي عليه في هذه المناصب والوظائف أيام إلا ويبدأ بتعداد سيئات النظام السابق، وشاغل هذا المنصب وإخفاقاته، وأضراره للمؤسسة بجانب التبجح بحسنات نفسه ونجاحاته وإنجازاته الهامة العملاقة، ويقيم العالم ولايقعده. لا، والله لن يقدِّم عدم دخول هؤلاء في المناصب

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري